لماذا تأخر المسلمون

ولماذا تقدم غيرهم ؟

﴿ من قلم ﴾

الأمير شكيب أرسلان

رئيس المجمع العلمي العربي

في سورية

عليه حواش من قلم فقيد الإسلام العلامة السيد محمد رشيد رضا

وقد أضيفت زيادات كثيرة على هذه الطبعة من قلم المؤلف

(وهو جواب اقتراح كتب لمجلة المنار خاصة سنة ١٣٤٨)

« الطبعة الثالثة في سنة ١٣٥٨ »

طبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر

لماذا تأخر المسلمون

ولماذا تقدم غيرهم ؟

﴿ من قلم أمير البيان ﴾

الأمير شكيب أرسلان

رئيس المجمع العلمي العربي

في سورية

عليه حواش من قلم فقيد الاسلام العلامة السيد رشيد رضا

وقد أضيفت إليه زيادات على هذه الطبعة الثالثة من قلم المؤلف

(وهو جواب اقتراح كتب لمجلة المنار خاصة سنة ١٣٤٨)

« الطبعة الثالثة في سنة ١٣٥٨ »

طبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر

مقدمة

على هذه الرسالة لفقيد الاسلام الأستاذ الحجة
السيد رشيد رضا قدس الله روحه

بسم الله الرحمن الرحيم

(إنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ ما بقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بأَنْفُسِهِمْ) سورة الرعد ١٣:١٢ (ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) سورة الأنفال ٨ : ٥٤

(إنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ) سورة المؤمن ٤٠:٥١ (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ) سورة الحجرات ٤٩ : ١٥ .

كتب إلىّ تلميذى المرشد الشيخ محمد بسيونى عمران إمام مهراجا جزيرة سمبس برنيو (جاوه) كتاباً يقترح فيه على أخينا المجاهد أمير البيان أن يكتب للمنار مقالا بقلمه السيال

فى أسباب ضعف المسلمين فى هذا العصر وأسباب قوة الافرنج واليابان وعزتهم بالملك والسيادة والقوة والثروة . وقال فى كتاب آخر إنه قرأ ما كتبناه فى المنار وتفسيره من بيان الأسباب فى الأمرين، وما كتبه الأستاذ الامام فى مقالات (الاسلام والنصرانية مع العلم والمدنية) فى الموضوع ، وإنما غرضه أن يكتب فى ذلك أمير البيان بقلمه المؤثر المعبر عن معارفه الواسعة ، وآرائه الناضجة ، لتجديد التأثير فى أنفس المسلمين بما يناسب حالهم الآن ، لتنبيه غافلهم ، وتعليم جاهلهم وكبت خاملهم ، وتنشيط عاملهم . وبنى الاقتراح على الأسئلة الآتية التى صارت مثار شبهة على الدين عند غير علمائه ، فهو يعلم مما سمعه من دروسنا فى مدرسة الدعوة والارشاد ومما كتبناه مراراً فى المنار والتفسير أن كتاب الله تعالى حجة على أدعياء الاسلام والايمان وليسوا هم حجة عليه

اقترحت هذا الاقتراح لحمل أخى وولي الأمير شكيب على كتابة شيء مثل هذا للمنار ، وأنا الذى أنصح له دائما بتخفيف أحمال الكتابة عن عاتقه لكثرة ما يكتب لصحف الشرق والغرب وللأصدقاء وغيرهم، فأرسلت إليه كتاب الشيخ محمد بسيونى عقب وصوله إلىّ ، فأرجأ الجواب عنه لكثرة

الشواغل إلى أن عاد من رحلته الأخيرة إلى اسبانية وقد أثرت في نفسه مشاهد حضارة قومنا العرب فى الأندلس والمغرب الأقصى، وشاهد تأثير محاولة فرنسة تنصير شعب البربر فى المغرب تمهيداً لتنصير عرب افريقية المرزوئين باستعبادها لهم، كما فعلت اسبانية فى سلفهم فى الأندلس — فكتب الجواب منفعلا بهذه المؤثرات، فكان آية من آيات بلاغته، وحجة من حجج حكمته، لعلها أنفع ما تفجر من ينبوع غيرته، وانبجس من معين خبرته، فسال من أنبوب يراعته، جزاه الله خير ماجزى المجاهدين الصادقين.

محمد رشيد رضا

كتاب الشيخ محمد بسيونى عمران

حضرة مولاى الأستاذ المصلح الكبير السيد محمد رشيد رضا صاحب المنار نفعنى الله والمسلمين بوجوده العزيز امين

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . أما بعد فان من قرأ ما كتبه فى المنار وفى الجرائد العربية العلامة السياسى الكبير أمير البيان ، الأمير شكيب أرسلان ، من مقالاته الرنانة المختلفة المواضيع ، عرف أنه من أكبر كتاب المسلمين المدافعين عن الاسلام ، وأنه أقوى ضلع للمنار وصاحبه فى خدمة الاسلام والمسلمين ، وانى أرجو من الله تعالى أن يطيل بقاءهما الشريف فى خير وعافية - كما أرجو من مولاى الأستاذ صاحب المنار أن يطلب من هذا الأمير الكاتب الكبير أن يتفضل علىّ بالجواب عن أسئلتى الآتية وهى :

(١) ما أسباب ما صار اليه المسلمون (ولاسيما نحن مسلمو جاوة وملايو) من الضعف والانحطاط فى الأمور الدنيوية والدينية معاً ، وصرنا أذلاء لاحول لنا ولا قوة ، وقد قال الله تعالى فى كتابه العزيز (وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ) فأين عزة المؤمنين الآن ؟ وهل يصح لمؤمن أن يدعى أنه عزيز

وإن كان ذليلا مهانا ليس عنده شيء من أسباب العزة إلا لأن الله تعالى قال (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين)

(٢) ما الأسباب التي ارتقى بها الأوربيون والأمريكانيون واليابانيون ارتقاء هائلا؟ وهل يمكن أن يصير المسلمون أمثالهم في هذا الارتقاء إذا اتبعوهم في أسبابه مع المحافظة على دينهم (الاسلام) أم لا؟

هذا والمرجو من فضل الأمير أن يبسط الجواب في المنار عن هذه الأسئلة وله وللأستاذ صاحب المنار من الله الأجر الجزيل.

محمد بسيوني عمران

سنبس بورنيو الغربية في ٢١ ربيع الآخر سنة ١٣٤٨

هذا نص كتاب السائل ويتلوه جواب الأمير، وقد وضعنا له بعض العناوين، لأنها كمحطات الطريق للسالكين وعلقنا عليه قليلا من الحواشي المفيدة للقارئين، كما فعلنا ذلك في كتاب الاسلام والنصرانية لشيخنا الأستاذ الامام (رح)

«تنبيه» الحواشي التي من قلم العلامة السيد رشيد رضا رحمه الله عليها التوقيع بحرف (ر) والحواشي المضافة إلى هذه الطبعة من قلم المؤلف عليها التوقيع بحرف (ش)

جواب الامير شكيب أرسلان

إن الانحطاط والضعف اللذين عليهما المسلمون شيء عام لهم فى المشارق والمغارب لم ينحصر فى جاوة وملايو ، ولا فى مكان آخر ، وإنما هو متفاوت فى دركاته ، فمنه ماهو شديد العمق ، ومنه ماهو قريب الغور ، ومنه ما هو عظيم الخطر ، ومنه ماهو أقل خطراً

وبالاجمال حالة المسلمين الحاضرة ولا سيما مسلمى القرن الرابع عشر للهجرة أو العشرين للمسيح ، لاترضى أشد الناس تحمساً بالاسلام وفرحاً بحزبه ، فضلا عن غير الأحمسى من أهله

إن حالتهم الحاضرة لاترضى لا من جهة الدين ولا من جهة الدنيا ، ولا من جهة المادة ولا من المعنى . وإنك لتجد المسلمين فى البلاد التى يساكنهم فيها غيرهم متأخرين عن هؤلاء الأغيار لايسامتونهم فى شيء إلا ماندر ، ولم أعلم من المسلمين من ساكنهم أمم أخرى فى هذا العصر ولم يكونوا متأخرين عنهم إلا بعض أقوام منهم ، وذلك كمسلمى بوسنه مثلا فانهم ليسوا فى سوىٍّ مادى ولا معنوى أدنى من سوى

النصارى الكاثوليكيين ، أو النصارى الأرثوذكسيين الذين يحيطون بهم ، بل هم أعلا مستوى من الفريقين[١] ، وككثير من مسلمى الروسية الذين ليس المسيحيون الذين يجاورونهم أرقى منهم . ولقد كان المسلمون فى أذربيجان قبل الحرب أرقى من الطوائف المسيحية التى تساكنهم ، ولا خلاف فى أن مسلمى الصين إجمالا على تأخرهم هم أرقى من الصينيين البوذيين ، هذا إذا كانت النسبة بين الفريقين باقية كما كانت قبل الحرب العامة ، وفيما عدا هذه الأماكن نجد تأخر المسلمين عن مسامتة جيرانهم عاما مع تفاوت فى دركات التأخر

(١) كانوا أعلا مستوى من الكاثوليكيين والأرثوذكسيين من الجهة المادية بسبب أن ٨٠ فى المائة من أراضي بوسنة كانت ملكا للمسلمين وكان الفلاحون فيها جميعاً من السربيين فمنذ بضع عشرة سنة سنّت حكومة بلغراد قانوناً صدّقه مجلس نوابها نزعت بموجبه هذه الأملاك من أيدى مالكيها المسلمين وسلمتها إلى الفلاحين السربيين غير معوضة على المسلمين إلا ببدل بخس فأصبحوا لا يملكون فى بوسنه إلا ٢٥ فى المائة من الأراضى فسقطت أهميتهم المادية من ذلك الوقت. أما حالتهم الأدبية فمرضية إلى اليوم لا يقال انهادنيا بالقياس إلى جيرانهم (ش)

ويقال إن العرب فى جزيرة سنغافورة هم أعظم ثروة من جميع الأجناس التى تساكنهم حتى من الانكليز أنفسهم بالنسبة إلى العدد ، ولا أعلم مبلغ هذا الخبر من الصحة ، ولكنه على فرض صحته ليس بشىء يقدم أو يؤخر فى ميزانية المسلمين العامة

ولا انكار أن فى العالم الاسلامى حركةشديدة ، ومخاضا عظيما شاملاللامور المادية والمعنوية ، ويقظةجديرة بالاعجاب، قد انتبه لها الأوروبيون وقدروها قدرها ، ومنهم من هو متوجس خيفة مغبتها ، لايخفى هذا الخوف من تضاعيف كتاباتهم ، إلا أن هذه الحركة إلى الأمام لم تصل بالمسلمين حتى اليوم إلى درجة يساوون بها أمة من الأمم الأوربية أو الأميركية أو اليابان

فبعد أن تقرر هذا وجب أن نبحث فى الأسباب التى أوجدت هذا التقهقر فى العالم الاسلامى بعد أن كان منذ ألف سنة هو الصدر المقدم ، وهو السيد المرهوب المطاع بين الأمم شرقا وغربا ، فقبل أن نبحث فى أسباب الانحطاط يجب أن نبحث فى أسباب الارتقاء فنقول :

أسباب ارتقاء المسلمين الماضى

إن أسباب الارتقاء كانت عائدة فى مجملها إلى الديانة الاسلامية التى كانت ظهرت جديداً فى الجزيرة العربية فدان بها قبائل العرب ، وتحولوا بهدايتها من الفرقة إلى الوحدة ، ومن الجاهلية إلى المدنية ، ومن القسوة إلى الرحمة ، ومن عبادة الأصنام إلى عبادة الواحد الأحد ، وتبدلوا بأرواحهم الأولى أرواحا جديدة ، صيرتهم إلى ماصاروا اليه من عز ومنعة ، ومجد وعرفان وثروة ، وفتحوا نصف كرة الأرض فى نصف قرن ، ولولا الخلاف الذى عاد فدب بينهم منذ أواخر خلافة عثمان وفى خلافة على رضى الله عنهما لكانوا أكملوا فتح العالم ولم يقف فى وجههم واقف

على أن تلك الفتوحات التى فتحوها فى نصف قرن أو ثلثى قرن برغم الحروب التى تسببت بها مشاقة معاوية لعلى والحروب التى وقعت بين بنى أميـة وابن الزبير قد أدهشت عقول العقلاء والمؤرخين والمفكرين ، وحيرت الفاتحين الكبار ، وأذهلت نابليون بونابرت أعظمهم ، وله تصريح فى ذلك نقله عنه « لا كاس » الذى رافقه إلى جزيرة « سانتة هيلانة » وغيره من المقيدين لحوادث نابليون المتبعين لأقواله

فقد ثبت ثبوتاً قطعياً من أقوال ذلك الفاتح العظيم وسيرته أيام كان بمصر أنه كان معجباً بمحمد وعمر وبكثير من أبطال الاسلام وأن نفسه حدثته لما كان بمصر أن يتخذ الإسلام ديناً له

فالقرآن قد أنشأ اذاً العرب نشأة مستأنفة وخلقهم خلقاً جديداً وأخرجهم من جزيرتهم والسيف فى احدى اليدين والكتاب فى الأخرى يفتحون ويسودون ، ويتمكنون فى الأرض بطولها والعرض

ولا عبرة بما يقال فى شأن العرب قبل الاسلام ، وما يروى من فتوحات لهم ومدنيات أثيلة ، وما ينوه به من أخلاق عظام فى الجاهلية ، فهذه ولا جدال قد كانت ولا تزال آثارها ظاهرة ، ولا شك فى مدنية العرب القديمة وأنها من أقدم مدنيات العالم ، على الاطلاق ومما يرجح أن الكتابة قد بدأت عندهم ، وأنه لو فرض أن الفينيقيين هم الذين اخترعوا الكتابة فى العالم فالفينيقيون فى الحقيقة أمة سامية عربية ، ولكن دائرة تلك المدنية كانت محدودة مقصورة على الجزيرة وما جاورها .

وقد أتى على العرب حين من الدهر سادهم الغرباء فى أرضهم ، وأذلهم الأجانب فى عقر دارهم ، كالفرس فى اليمن وعمان

والحـيرة ، وكالحبشة فى اليمن ، وكالروم فى أطراف الحجاز ومشارف الشام. والحقيقة أنهم لم يستقلوا استقلالا حقيقيا واسعاً إلا بالاسلام ولم تعرفهم الأمم البعيدة وتخنع لهم الممالك العظام والقياصرة والأكاسرة وتتحدث بصولتهم الناس ولم يقعدوا من التـاريخ المقعد الذى أحلهم فى الصف الأول من الأمم الفاتحة إلا بمحمد ﷺ

فالسبب الذى به نهضوا وفتحوا ، وسادوا وشادوا ، وبلغوا هذه المبالغ كلها من المجد والرقى ، يجب علينا أن نبحث عنه وننشده ، ونحفى المسئلة ونمعن فى النشدان : أهو باق فى العرب وهم قد تأخروا برغم وجوده وتأخر معهم تلاميذهم الذين هم سائر المسلمين ، أم قد ارتفع هذا السبب من بينهم ، ولم يبق من الايمان إلا اسمه ، ومن الاسلام إلا رسمه ، ومن القرآن إلا الترنم به ، دون العمل بأوامره ونواهيه ، إلى غير ذلك مما كان فى صدر الملة وعنجهية الشريعة

فقد المسلمين السبب الذى ساد به سلفهم

إذا فحصنا عن ذلك وجدنا أن السبب الذى به استقام هذا الأمر قد أصبح مفقوداً بلا نزاع وإن كان بقى منه شىء

فكباقى الوشم فى ظاهر اليد . فلو كان الله تعالى وعد المؤمنين بالعزة بمجرد الاسم دون الفعل لكان يحق لنا أن نقول : أين عزة المؤمنين ؟ من قوله تعالى (وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ) ولو كان الله قد قال (وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ) بمعنى أنه ينصرهم بدون أدنى مزية فيهم سوى أنهم يعلنون كونهم مسلمين ، لكان ثمة محل للتعجب من هذا الخذلان بعد ذلك الوعد الصريح بالنصر . ولكن النصوص التى فى القرآن هى غير هذا ، فالله غير مخلف وعده ، والقرآن لم يتغير ، وانما المسلمون هم الذين تغيروا ، والله تعالى أنذر بهذا فقال (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) فلما كان المسلمون قد غيروا ما بأنفسهم كان من العجب أن لا يغير الله ما بهم ، وأن لا يبدلهم الذل والضعة ، من ذلك العز وتلك الرفعة ، بل كان ذلك يُعَدّ منافياً للعدل الالهى . والله عز وجل هو العدل المحض .

كيف ترى فى أمة ينصرها الله بدون عمل ويفيض عليها الخيرات التى كان يفيضها على آبائها ، وهى قد قعدت عن جميع العزائم التى قد كان يقوم بها آباؤها ؟ وذلك يكون أيضاً مخالفا للحكمة الالهية والله هو العزيز الحكيم . ماقولك فى عزة دون استحقاق ، وفى غلة دون حرث ولا زرع ، وفى فوز دون

سعي ولا كسب ، وفى تأييد دون أدنى سبب يوجب التأييد ؟
لاجرم أن هذا مما يغرى الناس بالكسل ، ويحول بينهم وبين العمل ، بل مما يخالف النواميس التى أقام الله الكون عليها وهو مما يستوى به الحق والباطل ، والضار والنافع ، والموجب والسالب ، وحاشا لله أن يفعل ذلك . ولو أيد الله مخلوقا بدون عمل لأيد من دون عمل محمداً رسوله ولم يحوجه إلى القتال والنزال والنضال ، واتباع سنن الكون الطبيعية للوصول إلى الغاية . وتصور أمة لله عندها مائة وهى تؤدى من المائة خمسة فقط ، أتعد نفسها قد أدت ماعليها وهى تطمع فى أن يكافئها الله كما كان يكافئ أجدادها الذين كانوا يؤدون المائة مائة ، وإن قصروا عن المائة أدوا بالأقل تسعين أوثمانين منها ؟ كلا هذا مخالف لما وعد الله على رسله ومخالف للعقل والمنطق ، ومخالف لحكمة التشريع ، وليس هذا هو الشرط الذى شرطه الله على المؤمنين ، وليس هذا هو البيع الذى يستبشر به المؤمنون .

قال الله تعالى (إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فى سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ، وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًا فى التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ ،

وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنْ اللهِ ؟ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ . وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمِ) فأين حالة المسلمين اليوم من هذا الوصف الذى فى كتاب الله ؟ وأين حالتهم من سلفهم الذين كانوا يتهافتون على الموت الأحمر لاحراز الشهادة وكثيراً ما كانوا ينشدون الموت ولا يجدونه ؟ وكان فارسهم يكر وهو يقول : إني لأشم ريح الجنة ، ثم لا يزال يكر ويخوض غمرات الحرب حتى إذا استشهد قال : هذا يوم الفرح ، وإذا فاتته الشهادة برغم حرصه عليها عاد إلى قومه حزينا كئيبا

المقابلة بين حالى المسلمين والافرنج اليوم

اليوم فقد المسلمون أو أكثرهم هذه الحماسة التى كانت عند آبائهم، وإنما تخلق بها أعداء الاسلام الذين لم يوصهم كتابهم بها ، فتجد أجنادهم تتوارد على حياض المنايا سباقا ، وتتلقى الأسنة والحراب عناقا ، ولقد كان مبلغ مفاداتهم بالنفائس وتضحيتهم للنفوس فى الحرب العامة فوق تصور عقول البشر ، كما يعلم ذلك كل أحد ، فالألمان فقدوا نحو مليونى قتيل ، والفرنسيون فقدوا مليونا وأربعمائة ألف قتيل ، والانكليز فقدوا ستمائة ألف قتيل ، والطليان فقدوا

أربعمائة وستين ألف قتيل ، والروس هلك منهم ما يفوق الاحصاء وهلم جرا . هذا من جهة النفوس ، وانكلترا بذلت سبعة مليارات من الذهب (أى سبعة آلاف مليون جنيه) وفرنسة بذلت نحو مليارين ، وألمانية أنفقت ثلاثة ، وإيطالية أنفقت خمسمائة مليون ، والروسية أنفقت ماأوقع فيها المجاعة التى آلت إلى الثورة ثم إلى البلشفة ، وهلم جرا .

فليقل لى قائل : أية أمة مسلمة اليوم تقدم على ماأقدم عليه هؤلاء النصارى من بيع النفوس وإنفاق الأموال بدون حساب فى سبيل أوطانهم ودولهم حتى نعجب نحن لماذا آتاهم الله هذه النعمة والعظمة والثروة وحرم المسلمين اليوم أقل جزء منها؟

وقد يقال : ان المسلمين فقراء ليس عندهم هذه الأموال لينفقوا هذا الانفاق كله . فنجيب بأننا نوزع هذه النفقات على الأوربيين بنسبة رأس المال ولا نكلف المسلمين إلا الانفاق مثل الأوربيين على هذه النسبة ، فهل تسخو الأمم الاسلامية الحاضرة بما تسخو الأمم الأوربية التى منها من قد أنفقت فى الحرب العامة أكثر من نصف ثروتها ؟

الجواب : لا . ليس فى المسلمين اليوم من يفعل ذلك لا أفرادا ولا أقواما. وندر فى المسلمين من ينفق الزكاة الشرعية

وقد يقال : إن الأمة التركية وهى أمة مسلمة قد أنفقت كل ما تقدر عليه فى حرب اليونان ولم تقصر عن شأو الأوربيين فى المفاداة بالانفس والنفائس

والجواب : نعم . قد كان ذلك . ومن الترك من بذل ثلث ثروته ومنهم من بذل نصف ثروته فى هذه الحرب ، ولكنهم لما فعلوا ذلك انقلبوا بنعمة من الله وفازوا ، وحرروا أنفسهم واستقلوا ، وارتفعوا بعد أن كانوا هووا ، وعزوا بعد أن كانوا ذلوا . اذاً الأمم الاسلامية اذا ائتمرت فى المفاداة بما أمرها به كتابها كما كان يفعله آباؤها ، أو اقتدت على الأقل بما هو دأب الأوربيين اليوم من بذل النفوس والنفائس فى سبيل حفظ بيضتها ، وذود المعتدين عنها ، لم تقطف من ثمرات التضحية إلا مثل ماقطفه غيرها . وانقلبت بنعمة من الله وفضل لم يمسسها سوء .

ولكن الأمم الاسلامية تريد حفظ استقلالها بدون مفاداة ولا تضحية ، ولا بيع أنفس ولا مسابقة إلى الموت ، ولا مجاهدة بالمال ، وتطالب الله بالنصر على غير الشرط الذى اشترطه فى النصر [1] فان الله سبحانه يقول(وَلَيَنْصُرَنَّ اللّٰهُ مَنْ يَنْصُرُهُ) ويقول(إِنْ تَنْصُرُوا اللّٰهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ)

ومن المعلوم أن الله تعالى غير محتاج إلى نصرة أحد، وإنما يريد بنصرته تعالى اطاعة أوامره واجتناب نواهيه . ولكن المسلمين أهملوا جميع ماأمرهم به كتابهم (في ذلك) أو أكثره، واعتمدوا في استحقاق النصرة على كونهم مسلمين موحدين، وظنوا أن هذا يغنيهم عن الجهاد بالأنفس والأموال . ومنهم من اعتمد على الدعاء والابتهال لرب العزة لأنه يجده أيسر عليه من القتل والبذل . ولو كان مجرد الدعاء يغني عن الجهاد لاستغنى به النبي ﷺ وصحابته وسلف هذه الامة فانهم الطبقة التي هي أولى بأن يسمع الله دعاءها . ولو كانت الآمال تبلغ بالأدعية والأذكار، دون الأعمال والآثار، لانتقضت سنن الكون، وبطل التشريع ولم يقل الله تعالى (وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَاسَعَى) ولم يقل (وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ) ولم يقل للمعتذرين عن القتال (لَاتَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ

---

(١) المنار: يراجع تفصيل هذه المسألة في أجزاء تفسير المنار تجده بدلالة الفهارس في مواضع من أكثرها، منها ١٣ موضعاً في الجزء الرابع منه و٧ مواضع في الجزء الثاني، وآخرها في آخر الجزء التاسع ولها مزيد في بضع مواضع من الجزء العاشر (ر)

وَرَسُولُهُ) الآية.ولم يقل (أَنِّى لَاأُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ)

لقد ظن كثير من المسلمين أنهم مسلمون بمجرد الصلاة والصيام وكل مالا يكلفهم بذل دم ولا مال ، وانتظروا على ذلك النصر من الله . وليس الأمر كذلك فان عزائم الاسلام لاتنحصر فى الصلاة والصيام ، ولا فى الدعاء والاستغفار ، وكيف يقبل الله الدعاء ممن قعدوا وتخلفوا ، وقد كان فى وسعهم أن ينهضوا ويبذلوا (١)

اعتذار المسلمين عن أنفسهم ورده

يقولون : ليس عند المسلمين ماعند الافرنج من الثروة والسعة لينفقوا فى أعمال الخير وفى مساعدة بعضهم بعضاً .

(١) يظهر أن الأمير لم يقرن الزكاة بالصلاة والصيام لعلمه بأن أكثرهم تركها وهى ركن الاسلام الدنيوى المادى ، والصلاة ركنه الروحى،وهم يطلبون الدنيا ويتركون من الاسلام أهم أركانها ـ الزكاة والجهاد بالمال والنفس فى سبيل الله ـ وقد وصف الله المؤمنين الصادقين بالجهاد بأموالهم وأنفسهم فقدم ذكر المال وقال فى سياق آيات القتال (وَأَنْفِقُوا فِى سَبِيلِ اللهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ) أى بعدم الانفاق وقد قاتل الصحابة (رض) من منع الزكاة ولم يعتدوا باسلامهم بدونها (ر)

فنقول لمن يحتج بهذه الحجة : إننا نرضى منهم أن ينفقوا على نسبة رءوس أموالهم كما تقدم الكلام عند ذكر الجهاد بالمال . فهل المسلمون فاعلون ؟

إننا نراهم قد محوا رسوم الأوقاف والمؤسسات الخيرية التى تركها آباؤهم ، فضلا عن كونهم لايتبرعون بأموالهم الخاصة ولا يجرون مع الأوربيين فى ميدان من جهة التبرع لأجل المشروعات العامة ، فكيف يطمع المسلمون أن تكون لهم منزلة الأوربيين فى البسطة والقوة والسلطان وهم مقصرون عنهم بمراحل فى الايثار والتضحية ؟ فان العمل لأجل السلطان فى الأرض ، أشبه بالحرث فى الأرض ، فبقدر ماتشتغل فيها هى تعطيك . وإن قصرت فى العمل قصرت هى فى الثمر ، والمسلمون يريدون سلطانا يشبه سلطان الأوربيين بدون إيثار ولا بذل ، ولا فقد شىء من لذائذهم ، وينسون أن الله تعالى يقول(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَىْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ)

وقد يقولون : إننا جربنا البذل والتضحية ، وابتلينا بالنقص من الأموال والأنفس والثمرات وصبرنا ولم يفدنا ذلك شيئاً ، وبقى الأوربيون مسلطين علينا ، إنى أنقل هذا القول عن بعضهم لأنى قد سمعته كثيراً .

والجواب : هل يقدرون أن يقولوا لنا ان ما يدعونه من البذل والتضحية يشبه شيئاً مما يقوم به النصارى واليهود من هذا القبيل؟ أو انه إذا نسب إليه تكون نسبته نسبة الواحد إلى المائة؟

عندنا مثال حديث العهد هو مسئلة فلسطين : حدثت وقائع دموية بين العرب واليهود فى فلسطين فأصيب بها أناس من الفريقين فأخذ اليهود فى جميع أقطار الدنيا يساعدون المصابين من يهود فلسطين ، وأراد العالم الاسلامى أن يساعد عرب فلسطين كما هو طبيعى ، فبلغت تبرعات اليهود لأبناء ملتهم من فلسطين مليون جنيه ، و بلغت تبرعات المسلمين كلها ١٣ ألف جنيه أى نحو جزء من مائة [1]

(١) عنيت بهذه الواقعة الفتنة التى جرت سنة ١٩٢٩ ميلادية وكان مجموع ما أعان به العرب إخوانهم فى فلسطين ثلاثة عشر ألف جنيه لا غير إلا أن حوادث الدهر علمت المسلمين وأيقظتهم ونيران المصائب والخطوب أحسنت سبكهم ، ففى هذه السنوات العشر الأخيرة بدأوا يقتدون باليهود والأوربيين فى البذل وساروا فيه على أثرهم وإن كانوا لا يزالون فى أول الطريق ولقد أحصيت اعانات العرب لاخوانهم فى فلسطين بين سنتى ١٩٣٧ و ١٩٣٨ فزادت على ما كان يحصل من قبل ولكن هذه الاعانات أثمرت ثمرها وثبتت أقدام العرب فى وجه الانكليز

فسيقولون : إن المسلمين لا يملكون مثل ثروة اليهود.
ونعود فنجيبهم. نرضى منهم بأن ينفقوا فى مساعدة ملتهم على قدر اليهود والافرنج بالنسبة إلى رءوس أموالهم ، ولا نطالب منهم الفقراء الذين لا يملكون ما يزيد على كفاية عائلاتهم
قال الله تعالى (لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا

واليهود حتى اضطر الانكليز إلى سوق ٣٠ ألف جندى هم فى نضال مستمر من سنتين إلى الآن مع العرب ووراءهم قوى عظيمة من البوليس واليهود المسلحين والخائنين من العرب أنفسهم ومن قوة شرقى الأردن ولم يتمكنوا من اخماد الثورة ولا حصلوا على طائل ، وعادت الانكليز فنكصت على أعقابها ورضيت بعقد مؤتمر فى لندرة تحضره وفود الدول العربية لمساعدتها على حل المعضلة الفلسطينية ورجعت عن برنامجها الأول وهو اعطاء فلسطين لليهود راضية بأن يكون هؤلاء ثلث عدد السكان لا يزيدون على الثلث فهذا التحول نتيجة المقاومة وهذه المقاومة إنما كانت نتيجة البذل والسماح واستصغار الدنيا، ومن استصغر الدنيا كبرت لديه، ومن هانت عليه الحياة جاءته الحياة تسعى على رجليها سنة الله فى خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا (ش)

عَلَى ٱلَّذِينَ لَايَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ)

ثم قال تعالى(إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ ٱلْخَوَالِفِ) . ونجيب أيضاً . انه وإن كان اليهود أغنى بالأموال من المسلمين فالمسلمون أكثر جداً بالعدد ، لأن اليهود عشرون مليونا ، والمسلمين نحو من اربعمائة مليون [1] . فلو أن كلا من المسلمين تبرع لفلسطين بقرش واحد ـ وهو الذى لايعجز عنه أحد فى العالم مهما اشتد فقره ـ لاجتمع من ذلك ثلاثة ملايين جنيه ونصف

فلنترك تسعة أعشار المسلمين ونفرض هذه الاعانة لفلسطين على عشر واحدمنهم أى على ٣٥ مليون نسمة لاغير . وهؤلاء الخمسة والثلاثون مليون نسمة نجدهم حول فلسطين

---

(١) بعد أن ثبت بالاحصاء الرسمى أن مسلمى الصين خمسون مليون نسمة تحقق أن مسلمى المعمور كله لا يقلون عن اربعمائة مليون منهم ٢٤ مليونا من العرب فى آسية و ١٧ مليونا من الترك فى الأناضول و ١٦ مليونا فى إيران و ١٠ ملايين فى أفغانستان و ٨٥ مليونا فى الهند و ٥٦ مليونا فى الجاوى و ٢٥ مليونا فى الروسية وثلاثة ملايين فى اوربة و ٥٠ مليونا فى الصين ومائة ميلون فى افريقية

فى لمحة بصر . فان مسلمى مصر وسورية وفلسطين والعراق ونجد والحجاز واليمن وعمان هم ٣٥ مليونا . ولنتقاض من هؤلاء أداء قرش واحد عن كل جمجمة ، فماذا يجتمع لنا من ذلك؟
الجواب : يجتمع ثلاثمائة وخمسون ألف جنيه

فالمسلمون قد تبرعوا عن هذه الأعداد كلها بثلاثة عشر ألف جنيه أى بما يساوى نحو ثلثى عشر القرش عن كل نسمة من عشر عددهم

أهذا ما تريدون أن تسموه «تضحية» ؟

أو بمثل هذا تجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ؟

أو هذه درجة نجدتكم لاخوانكم فى الدين وجيرانكم فى الوطن والقائمين عنكم بالدفاع عن المسجد الأقصى الذى هو « ثالث الحرمين وأول القبلتين ؟ » أفلم يقل الله تعالى (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ) أفهذه نجدة الأخ لأخيه ؟

يقولون لماذا سادت الأمة الانكليزية هذه السيادة كلها فى العالم ؟ نجيبهم .انها سادت بالأخلاق وبالمبادى الوطنية العالية . حدثنى رجل ثقة أنه يعرف انكلزيا ذا منصب فى الشرق كان يأمر خادمه أن يشترى له الحوائج اللازمة لبيته يوميا من دكان رجل انكليزى فى البلدة التى هم فيها . فجاءه الخادم مرة بجدول حساب وفر عليه به ٢٠ جنيها فى مدة شهر . فسأله

الانـكليزى : كيف أمكنك هذا التوفير ؟ فقال الخادم : تركنا دكان الانـكليزى الذى كنا نشترى منه وصرنا نشترى من دكان أحد الأهالى من العرب : فقال له الانـكليزى : ارجع الى دكان الانـكليزى الذى كنا نشترى منه . فقال الخادم : أو لو كان ذلك يستلزم انفاق ٢٠ جنيها زيادة ؟ قال الانـكليزى: ولو كان ذلك يستلزم انفاق ٢٠ جنيها زيادة. وسمعت أن كثيرين من الانـكايز الذين فى الأقطار لايشترون شيئاً ذا قيمة إلا من بلادهم ويرسلون إلى لندرة فيوصون على كل ما يحتاجون اليه حتى لا يذهب مالهم إلى الخارج . أفنقيس هذا بأعمال المسلمين الذين مهما أوصيتهم بالشراء من أبناء جلدتهم أو أوطانهم وعلموا أنهم يقدرون أن يوفروا فى السلعة الواحدة نصف قرش إذا أخذوها من الافرنجى تركوا ابن جلدتهم أو ملتهم ورجحوا الافرنجى ؟ أفلم يكن سبب حبوط مقاطعة العرب لليهود فى فلسطين أشياء كهذه [1] ؟ حرموا أنفسهم

(١) أما الآن فقد أصبح السواد الأعظم منهم يبذلون النفوس والنفائس فى الدفاع عن وطنهم فلسطين وأتوا فى هذه السبيل بما ارتفعت له رؤس العرب جميعاً ولو أن هذه المناداة ظهرت منهم من أول الامر ماوصلت المصيبة إلى هذا الحد (ش)

أمضى سلاح فى يدهم وهو المقاطعة فى الأخذ والعطاء مع اليهود من أجل فروق تافهة موقتة ونسوا أن الضرر الذى يصيبهم من الأخذ والعطاء مع اليهود هو أعظم ألف مرة من ضرر هاتيك الفروق الزهيدة .

وكنت مرة آشكو إلى أحد كبار المصريين إهمال اخواننا المصريين لمجاهدى طرابلس وبرقة الذين إن لم تجب عليهم نجدتهم قياما بواجب الاخوة الاسلامية والجوار ، وجبت عليهم احتياطا من وراء استقلال مصر واستقبال مصر ، لأنه كما أن وجود الانكليز فى السودان هو تهديد دائم لمصر ، فوجود الطليان فى برقة هو تهديد دائم لها أيضا . فكان جواب ذلك السيد لى : لقد بذل المصريون مبالغ وفيرة يوم شنت ايطالية الغارة على طرابلس ولم يستفيدوا شيئاً فان ايطالية لم تلبث أن أخذتها

فقلت له : إن المصريين قد نهضوا فى الحرب الطرابلسية نهضة هى دون شك ترضى كل مسلم بل ترضى كل انسان يقدر قدر الحمية ولكن المبلغ الذى تبرعوا به يومئذ معلوم وهو ١٥٠ الف جنيه . فهل يطمع المسلمون فى انحاء المعمور أن ينقذوا طرابلس من براثن إيطالية بمائة وخمسين الف

جنيه ؟ وهل هذه التضحية تقاس فى كثير أو قليل إلى التضحيات التى قامت بها إيطالية بالمال والرجال ؟

كانت إعانة مصر فى الحرب الطرابلسية ١٥٠ الف جنيه وأنفقت الدولة العثمانية على تلك الحرب نحو مليون جنيه .

فانظر الى ما كان لذلك من النتائج

(النتيجة الأولى) وهى أهم شيء : حفظ شرف الاسلام وافهام الاوربيين أن الاسلام لم يمت وأن المسلمين لايسلمون بلدانهم بلاحرب وفى ذلك من الفائدة المادية والمعنوية للاسلام مالا ينكره إلا كل مكابر

(النتيجة الثانية) ان هذا المبلغ الضئيل بالنسبة إلى نفقات الدول الحربية قد كان السبب فى توطين الطرابلسيين أنفسهم على المقاومة والمجاهدة بما رأوا من نجدة اخوانهم لهم . فكانت هذه المقاومة سبباً لتجشم ايطالية المعتدية من المشاق والخسائر ما هو فوق الوصف إلى أن صار كثير من ساسة الطليان يصرحون بندمهم على هذه الغارة الطرابلسية

(النتيجة الثالثة) مهما يكن من عدد القتلى الذين فقدهم العرب فى هذه الحرب فان مجموع قتلى الطليان الى اليوم يفوق مجموع قتلى العرب أضعافا مضاعفة . فلقد لقى الطليان فى هذه

الحرب من الاهوال مالا يتسع لوصفه مقالة أو رسالة . وفى واقعة واحدة هى واقعة «الفويهات» على باب بنغازى ثبت فيها ١٥٠ مجاهداعربياً لثلاثة آلاف جندى طليانى من الفجر الى غروب الشمس إلى أن انقرضوا جميعاً ، إلا أفذاذاً أتى عليهم الليل، ورجع العدو ولما يموتوا : وبينما كان العرب فى حزن عظيم على من فقدوهم فى تلك المعركة اذجاءهم الخبر البرقى من الاستانة عن برقية وردت سراً من برلين عن برقية رقمية جاءت من سفارة الألمان فى رومية بأنه سقط فى هذه المعركة ألف وخمسمائة جندى من الطليان وأصاب الجنون سبعة من ضباطهم . وهذه وقعة من خمسين وقعة بالأقل تضاهيها فالمسلمون قد قاتلوا فى هذه المعركة جيشا يفوقهم فى العدد عشرين ضعفا وقتلوا نصفه أى قتلوا عشرة أضعافهم ـ والله تعالى قد قدر لهم فى حال القوة أن يغلبوا عشرة أضعافهم وفى حال الضعف أن يغلبوا ضعفيهم فقط كما قال فى سورة الأنفال (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ * الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ

فِيكُمْ ضَعْفاً ، فَإِن يَكُنْ مِنْكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ)

(النتيجة الرابعة) أنه قد كانت نفقات ايطاليا فى الحرب الطرابلسية فى السنة الأولى منها أى من سنة ١٩١١ الى سنة ١٩١٢ نحو مائة مليون جنيه ، ويظن أنها من عشرين سنة إلى اليوم ـ إذ المقاومة لم تنقطع حتى هذه الساعة ـ قد بلغت ثلاثمائة مليون جنيه (١)

فهذا كان كله نتيجة تلك الاعانة القليلة والنفقات الضئيلة التى قام بها المسلمون فى تلك الحرب ، ولكن المسلمين ينتظرون

(١) أما فى هذا العهد فقد انقطعت المقاومة بالسلاح وكان آخر من قاوم الطليان بالسلاح الشهيد والمجاهد الكبير عمر المختار رحمه الله إلا أن الطرابلسيين لا يزالون يقاومون الاستعمار الطلياني كما يقاوم التونسيون وسائر المغاربة الاستعمار الفرنسى ومن العبث أن تظن دول الاستعمار اخماد الحركات الوطنية بالعسف والقهر والقتل والنفى والحبس فكل هذا لا يزيد المسلمين إلا عداء وما استصلح عدو بمثل العدل (ش)

أن تنهزم ايطالية الدولة الكبيرة التى أهلها ٤٤ مليون نسمة ودخلها السنوى ٢٠٠ مليون جنيه فى صدمة واحدة أو فى السنة الاولى من الحرب [١] وإن لم يتحقق أملهم هذا انقطع منهم كل رجاء وبطلت كل حركة ، وأصاب بعضهم اليأس الذى هو

---

(١) أى هذا عددها ، وهذا دخلها ، وهذا انفاقها على الحرب وأماعصبيتها وضراوتها فى سفك دماء المسلمين فحسب المسلم الذى لم يفسده التفرنج والالحاد أن يقرأ النشيد الطليانى الذى ننقل ترجمته عن جريدة الفتح نقلا عن جريدة الشرق عدد ٥٤٣ وهو :

إن من أعظم الآلام لشاب فى العشرين من عمره أن لايحارب فى سبيل وطنه مع دوام القتال فى طرابلس ، والراية المثلثة الألوان والموسيقى الحربية تنبهان النفس المقدامة . ياأماه أتمى صلاتك ولا تبكى ، بل اضحكى وتأملى ، ألا تعلمين أن ايطالية تدعونى وأناذاهب الى (طرابلس) فرحا مسروراً لأبذل دمى فى سبيل سحق الأمة الملعونة (كذا) ولأحارب الديانة الاسلامية التى تجيز البنات الأبكار للسلطان (*)

---

* الديانة الاسلامية لاتجيز للسلطان الا ماتجيزه لغيره من المسلمين وهو تزوج البكر والثيب ، ولكن الافرنج تبيح لهم نصرانيتهم الافتراء على الاسلام وتبيح لهم مدنيتهم الزنا حتى أفسدوا كل قطر دخلوه ببغاياهم لاسيما الطليان منهم (ر)

مرادف للكفر بصريح الذكر الحكيم (إِنَّهُ لَايَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللهِ إِلَّاالْقَوْمُ الْكَافِرُونَ)

سأقاتل بكل قوتى لمحو القرآن (كذا)

ليس بأهل للمجد من لم يمت ايطالياً حقاً

تحمسى أيتها الوالدة، تذكرى (كارونى) التى جادت بأولادها فى سبيل وطنها : —

ـ ياأماه أنا مسافر، ألا تعلمين أنّ على الأمواج الزرقاء الصافية من بحرنا ستلقى سفائننا المراسى ؟ أنا ذاهب إلى طرابلس مسروراً لأن رايتنا المثلثة الالوان تدعونى، وذلك القطر تحت ظلها

لاتموتى لاننا فى طريق الحياة، وإن لم أرجع فلا تبكى على ولدك ولكن اذهبى فى كل مساء وزورى المقبرة ونسائم الاصيل تحمل إلى طرابلس وداعك الذى يأبى الحداد على قبر فلذة كبدك ؛ وإن سألك أحد عن عدم حدادك علىّ فأجيبيه : إنه مات فى محاربة الاسلام

. الطبل يقرع ياأماه . أنا ذاهب أيضاً . ألاتسمعين هزج الحرب، دعينى أعانقك وأذهب ! (ر)

ولنضرب مثلا ثالثاً ونمسك بعده عن ضرب الأمثال لأنها لا تعد ولا تحصى :

قام أهل الريف المغربى فى وجه الدولة الاسبانية مدة بضع سنين إلى أن تغلبوا عليها وطردوا جيوشها بعدأن أبادوا منهم فى واقعة واحدة ٢٦ ألف جندى وغنموا ١٧٠ مدفعا مع أن جميع أهل الريف بقضهم وقضيضهم ثمانيمائة ألف نسمة. وعددأهالى أسبانية ٢٢ مليون نسمة ، وأراضى الريف أكثرها قاحل والأهالى فيه فقراء يعيشون من كسب أيديهم ، ولقد قاموا بعمل أدهش أهل الأرض بالطول والعرض

فلو كان أهل الريف نصارى لانثالت عليهم الملايين من الجنيهات من كل الجهات إما بطريقة خفية وإما بواسطة جمعية الصليب الأحمر فى سبيل مداواة جرحاهم

فليقل لنا المسلمون كم جنيهاقدموا للريف فى ذلك الوقت ؟

ثم تألب الفرنسيس مع الاسبانيول وحشدوا لحرب الريفيين ٣٠٠ ألف مقاتل وحصروا الريف من كل جانب من البر والبحر وكانت طياراتهم القاذفة بالديناميت على قرى الريفيين تحصى بالمئات لا بالعشرات ولم تكف طيارات الفرنسيس والاسبانيول حتى جاء سرب طيارات أميركية من

نيويورك نجدة لفرنسة واسبانية (النصرانيتين على المسلمين لأنهم مسلمون)

هذا كله والمسلمون ينظرون إلى حرب الريف مكتوفى الأيدى، ولبثوا مكتوفى الأيدى مدة سنة وأخيراً نهض منهم أفراد لجمع شيء من أجل جرحى الريف، ولأجل بعث الحمية فى الناس لم يكتف محرر هذه السطور بالكتابة بل تبرعت بأربعة جنيهات لأجل القدوة، فماذا كان مجموع تلك الاعانات من كل العالم الاسلامى؟ الجواب ١٥٠٠ جنيه لا غير. فهل من خذلان بين المسلمين يفوق هذا الخذلان!

خيانة بعض المسلمين لدينهم ووطنهم واعتذارهم الباطل

وياليت المسلمين وقفوا عند هذا الحد فى خذلان الريفيين بل قامت منهم فئام يقاتلون الريفيين بأشد مما يقاتلون به الأجانب، وتألبت على محمد بن عبد الكريم قبائل وافرة العدد شديدة البأس مالأوا الفرنسيس والاسبانيول على أبناء ملتهم ووطنهم تزلفا إلى الفرنسيس والاسبانيول وابتغاء الحظوة لديهم. وقد جرى مثل ذلك عندنا فى سورية يوم الثورة

على فرنسة ، وجرى فى بلاد اسلامية كثيرة[1] ، أفبمثل هذه الأعمال يطالب أخونا الشيخ بسيوني عمران ربه بما وعدتعالى به من جعل العزة للمؤمنين ؟

وإذا سألت هؤلاء المسلمين المائلين للعدوعلى اخوانهم : كيف تفعلون مثل هذا وأنتم تعلمون أنه مخالف للدين وللشرف وللفتوة وللمروءة وللمصلحة وللسياسة ؟ أجابوك : كيف

(١) والآن عساكر شرقى الأردن وهم من العرب يقاتلون بكل شدة مجاهدى فلسطين الذين هم اخوانهم فى النسب والمذهب وهم يعلمون أن هؤلاء المجاهدين انما يذودون عن حياض العروبة والاسلام ويجودون بنفوسهم لأجل استحياء قومهم واستبقاء وطنهم للعرب وأنه لولا هؤلاء المجاهدون لتسلم اليهود جميع فلسطين من زمن طويل تحت ظل حراب الانكليز فبينما دماء المجاهدين تسيل لأجل حفظ فلسطين للعرب نجد دماء عساكر عربية فى شرق الأردن تسيل لأجل اخراج بلاد فلسطين وشرق الأردن نفسها بعد فلسطين من أيدى العرب

فهل يبلغ العدو من عدوه أكثر مما يبلغ العرب من أنفسهم ؟ لا والله (ش)

نصنع فان الأجانب انتدبونا ولو لم نفعل لبطشوا بنا ، فاضطررنا إلى القتال فى صفوفهم خوفا منهم . ونسوا قوله تعالى : (أَتَخْشَوْنَهُمْ فاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُم مُؤْمِنِينَ) وقوله تعالى (فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنْتُم مُؤْمِنِينَ ؟)

وكلام مثل هؤلاء فى الاعتذار غير صحيح فان الأجانب قد ندبوا كثيراً من المسلمين إلى خيانات كهذه فلم يجيبوهم ولم تنقض عليهم السماء من فوقهم ، ولا خسفت بهم الأرض من تحتهم ، ثم انه ان كان الاجانب المحتلون لبلاد المسلمين قد أصبحوا يغضبون على المسلمين الذين لا يلبون دعوتهم إلى خيانة قومهم ، فانما كان ذلك من أجل أن كثيرين من المسلمين كانوا يعرضون عليهم خدمتهم فى مقاومة اخوانهم ويقومون بها بكل نشاط ومناصحة ، ويبدون كل أمانة لهم فى أثناء تلك الخيانة . ولولا هذا التبرع بالخيانة ، والتسرع إلى مظاهرة الأجنبي على ابن الملة ، لما استأسد الأجنبي وصار يتحكم فى المسلمين هذا التحكم الفاحش ، ويتقاضاهم أن يخالفوا قواعد دينهم ومقتضى مصلحة دنياهم من أجل مصلحته ، بل قام يحملهم على الموت لأجل الموت

فان الموت موتان : أحدهما الموت لأجل الحياة وهو

الموت الذى حث عليه القرآن المؤمنين إذا مد العدو يده إليهم
وهو الموت الذى قال عنه الشاعر العربى :

تأخرت أستبقى الحياة فلم أجد لنفسى حياة مثل أن أتقدما

وهو الموت الذى يموته الافرنسى لأجل حياة فرنسة ، والألمانى لأجل حياة ألمانية ، والانكليزى فى سبيل بريطانية العظمى - وهلم جرا - ويجده على نفسه واجباً لايتأخر عن أدائه طرفة عين

وأما الموت الثانى فهو الموت لأجل استمرار الموت ، وهو الموت الذى يموته المسلمون فى خدمة الدول التى استولت على بلادهم . وذلك أنهم يموتون حتى ينصروها على أعدائها كما يموت المغربى مثلا حتى تنتصر فرنسة على المانية مثلا . ويموت الهندى حتى تتغلب انكلترة على أى عدو لها . ويموت التترى فى سبيل ظفر الروسية . والحال أنه بانتصار فرنسة على أعدائها تزداد فى المغرب غطرسة وظلما وابتزازاً لأملاك المسلمين وهضما لحقوقهم وذلك كما حصل بعد الحرب العامة إذ ازداد طمع الفرنسيس فى أهل المغرب وحدثوا أنفسهم بتنصير البربر ليدمجوهم فى الشعب الافرنسى ويأمنوا على مستقبل المغرب الذى صاروا يطلقون عليه لقب « افريقية الافرنسية » ،

وبالاختصار يموت المغربى على ضفاف الرين أو فى سورية حتى يزداد موتا فى المغرب ، لأن كل طائلة تفوز بها فرنسة فى الخارج هى زيادة فى قهر المغربى وإعناته وإذلاله مما لاسبيل للمناكرة فيه ، ومما قد ثبت بالتجربة . وكذلك موت الهندى فى سبيل نصرة انكلترا هو تطويل فى أجل عبودية الهند . وكذلك موت التترى فى خدمة الروسية لا عاقبة له سوى إزدياد قهر الروس للتتر . وهلم جرا

وهذا الموت لأجل الموت هو ما كان بخط منحن كما يقال أى باعتبار النتيجة ، ولكنه هناك موت لأجل الموت مباشرة بدون واسطة ، وهو عندما يموت المغربى فى قتال أخيه المغربى الذى قام يحاول أن يزحزح شيئا من النير الافرنسى الذى كاد يدق عنقه ، وإن لم يدق عنقه بتاتا استحياه حياة هى أشبه بالموت منها بالحياة

ولو انحصرت هذه الأمور فى العوام والجهلاء لعذرناهم بجهلهم ، وقلنا انهم لا يدرون الكتاب ولا السنة ولا السياسة الدنيوية ، ولا الأحوال العصرية ، وانهم إنما يساقون كما تساق بهيمة الأنعام إلى الذبح

ولكن الأنكى هو خيانة الخواص . مثال ذلك الوزير

المقرى الذى هو أشد تعصبا لقضية رفع الشريعة الاسلامية من بين البربر من الفرنسيس أنفسهم [1] . ومثله البغدادى باشا فاس الذى طرح نحو مائة شخص من شبان فاس وجلدهم بالسياط لكونهم اجتمعوا فى جامع القرويين وأخذوا يرددون دعاء « يالطيف الطف بنا فيما جرت به المقادر ولا تفرق بيننا وبين إخواننا البرابر » ومفتى فاس الذى أفتى بأن إلغاء الشرع الاسلامى من بين البربر ليس باخراج للبربر من الاسلام وهلم جرا

وكل من هؤلاء الخونة المارقين أخزاهم الله قد بلغ من الكبر عتيا ، وانتهى من أموال الأمة شبعا وريا . وهو

---

(١) ويؤكدون أنه كان كلما أرادت فرنسا تحت تأثير سخط العالم الاسلامى أن تعدل عن الظهير البربرى المقصود به إخراج البربر من الاسلام بتاتاً جاء هذا المقرى يحذرها عاقبة الرجوع إلى الصواب ويقول لها ان أهالى المغرب يعدّون هذا منها نكوصاً وضعفاً وبعد ذلك لا يمكنها أن تثبت أقدامها فى شمالى افريقية فالمقرى إذاً هو أكبر مشجع للحكومة الافرنسية على المضى فى سياستها البربرية التى ترمى إلى تنصير البربر وادماجهم فى الأمة الافرنسية (ش)

لايزال حريصا على الزلفى الى فرنسة ، واثبات صداقته لها ولو بضياع دينه ودنياه ، حتى تبقى عليه منصبه وحظوظه فى هذه البقية الباقية من حياته التاعسة[1]

وليس واحد من هؤلاء ولا من فى ضربهم فى المغرب إلا وهو مطلع على نيات فرنسة وعلى مراميها من جهة هذا النظام الجديد لأمة البربر ، وليس فيهم إلا من هو عارف بوجود جيش من القسوس والرهبان والراهبات يجوس خلال بلاد البربر ويبنى الكنائس ويتصيد اللقطاء والأيتام والفقراء وضعفاء الايمان[2] ، وليس فيهم إلا من هو عالم

(١) الغريب فى هذا أن أمثال هؤلاء الخونة يبيعون بلادهم كلها للأجنبي بثمن خسيس هو جزء منها لامن مال الأجنبي،ولوأخلصوا فى صده عنها لكان لهم منها أكثر مما يعطيهم الأجنبي منها ثم يكون باقيها لأولادهم وأهليهم واخوانهم فى الدين مع العز والشرف (ر)

(٢) ومما هو جار فى المغرب أن الأذان لصلاة الفجر ممنوع فى كثير من القرى التى يقطنها مستعمرة الفرنسيس وذلك لأنه قد يعكر عليهم صفو رقادهم صباحا (ش)

بمنع فرنسة فقهاء الاسلام والوعاظ من التجوال بين البربر حتى ترتفع الحواجز أمام دعوة المبشرين إلى النصرانية [١] وقد يكون المقرى والبغدادى هذان هما فى مقدمة الموقعين على الأوامر بمنع علماء الاسلام وحملة القرآن من الدخول إلى قرى البربر. وقد يكون المقرى هذا هو الذى خصص المبلغ من مال المخزن لجريدة «مراكش الكاثوليكية» التى تطعن فى الاسلام، وتقذف محمداً عليه الصلاة والسلام، ولدينا كثير من أعدادها التى تتضمن هذه المطاعن

وبعد هذا فمن يدرى ؟ فقد يكون المقرى مصلياً وصائماً وبيده سبحة يقرأ عليها أورادا. ومن يدرى ؟ فقد يكون

(١) وقد منعوا الوعاظ فى شهر رمضان من الذهاب إلى بلاد البربر وكانوا يحبسون من يخالف هذا الأمر وقد أقفلوا مئات من الكتاتيب القرآنية فى المغرب ومئات من مثلها فى الجزائر وأغلقوا دار الحديث فى تلمسان واحتجت على ذلك جمعية علماء المسلمين فى الجزائر فاسمعوا لها كلاما وأصرّ بعض رجال الدين الاسلامى فى الجزائر على تعليم القرآن للأحداث فحاكموهم وحكموا عليهم بالسجن أربعة أشهر بحجة أنهم خالفوا الأوامر الصادرة. وهلم جرا (ش)

البغدادى السيء الذكر ممن يتمسحون بالقبور ويستغيثون بالأولياء ويتظاهرون بهذا الورع الكاذب. وأما المفتى فهو المفتى فلا حاجة إلى تثبيت كونه يصلى الخمس، ويصوم ويتهجد ويوتر ويتنفل الخ

وقد مضى علينا نحن فى سورية شيء من هذا لأوائل عهد الاحتلال لكن لم تكن خيانة هؤلاء المعممين فى قضية دينية مباشرة. فقد اقترحت عليهم فرنسة أن يمضوا برقية إلى جمعية الامم ينكرون بها عمل المؤتمر السورى الفلسطينى المطالب باستقلال سورية وفلسطين فأمضاه منهم عمائم مكورة، وطيالس محررة مجررة، ورقاب غليظة، وبطون عظيمة وإن لم أقل الآن: أخزاهم الله، أخشى عتاب إخواننا المغاربة الذين يروننى خصصت بهذا الدعاء صدرهم الأعظم، ومفتيهم الأكبر، وأعفيت معممى سورية، فلذلك يقضى العدل بأن نقول أخزاهم الله أجمعين، أخزى الله الذين منهم فى المشرق والذين منهم فى المغرب ممن يوقعون على اقتراحات الأجانب المضرة بالدين والوطن (١)

---

(١) على أنهم فى السنة التالية أرادوهم على امضاء بيانات خبيثة كهذه فامتنعوا واحتجوا لدى الفرنسيس بأن عملهم ذاك

ولعل الأخ الشيخ بسيونى عمران يقول : إن هؤلاء أفراد قلائل فلا يجوز أن نجعل الأمة الاسلامية مسؤولة عن مخازيهم وموبقاتهم .

والجواب على ذلك : أن الظلم يخص والبلاء يعم كما لا يخفى، ولكنى لا أسلم أن هؤلاء أفراد قلائل، وأن الامة غير مسؤولة ! إذ لو كان وراء هؤلاء أمة يخشونها ماتجاسروا على الاتجار بدينها بعد الاتجار بدنياها بل كانوا لو اقترح عليهم الفرنسيس اقتراحا مضرا بملتهم وأمتهم ولم يقدروا على رده اعتزلوا مناصبهم . ولزموا بيوتهم . وكان الفرنسيس كلفوا بالعمل غيرهم ، فاذا أبى الخلف ما أباه السلف مرة بعد مرة علم الفرنسيس أن لافائدة فى الاصرار ، فعدلوا عن دسيستهم البربرية وماأشبهها، ولكنهم مصرون عليها بسبب استظهارهم بأناس ممن يزعمون أنهم «مسلمون» فهم يهدمون الاسلام

قد عرضهم للاهانة واستوجب مقت الشعب السورى لهم فهم لن يكرروا تلك الخيانة . وهذا دليل على أن الأمة تقدر متى شاءت أن تقوِّم أود هؤلاء المشايخ وأن الخائنين الخادمين لدول الاستعمار ليس لهم علاج الا الخوف على جلودهم .
(ش)

بمعاول في أيدى أبنائه ، ويقولون لسنا من هذا الأمر فى قبيل ولا دبير [1]

أفلا ترى كيف قالوا عن الظهير البربرى إنه قد أصدره السلطان وحكومة المخزن ؟ [2]

(١) وجميع الدول المستعمرة المتسلطة على ممالك الاسلام طريقتها الاستظهار على المسلمين بالمسلمين وقضية شرقى الأردن والخونة من عرب فسلطين من أنصع الشواهد على هذه الحالة

(٢) أفلا ترى كيف أنهم قتلوا فى مكناسة الزيتون ٢٥ مسلماً وجرحوا ٦٠ من أجل مظاهرة غير مسلحة قام بها الأهالى احتجاجاً على سلب السلطة مياه بساتينهم من أجل إعطائها إلى مستعمرة الفرنسيس وزعموا أن فعلهم هذا باسم السلطان. ألم ترَ أنهم ألغوا الحزب الوطنى المغربى وحكموا على ألفين وخمسمائة شاب منهم بالحبس سنةً وسنتين ونفوا علالًا الفاسى إلى بلاد خط الاستواء ونفوا نخبة رجالات المغرب إلى الصحراء وضربوا ضرباً مبرحاً عشرات من الأدباء منهم الأستاذ محمد المقرى الذى مات تحت الضرب وكل هذا باسم السلطان والسلطان لا يبدى ولا يعيد ولا يقدر أن يدفع عن

أفهذا هو الاسلام الذى يناشد الله الشيخ بسيونى عمران بتأييد أهله ؟ قال الله تعالى (وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ)

ولا شك أن « المسلمين » الذين يبلغون هـذه الدرجات من الانحطاط وتتركهم الأمة الاسلامية وشأنهم يلعبون بحقوقها يستحقون للاسلام التمحيص الذى هو فيه[1] فانما سمح الله بأن يستولى الأجانب على ديار المسلمين ويجعلوهم

رعيته التى مرجعها إلى الجنرال نوغيس واضع أساس المشروع البربرى الأثيم (ش)

(١) هكذا فى الأصل ومعنى يستحقون هنا يستوجبون على قول الفارابى واللام فى الاسـلام للتقوية والمراد به المسلمون . والمعنى يستوجبون بجرائمهم تمحيص المسلمين فى جملتهم ليميز الله الخبيث من الطيب ، ويفسره مابعده وهو مستنبط من قوله تعالى فى سياق غزوة أحد (وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ ٱلْكَافِرِينَ) فليراجع السياق من سورة آل عمران وتفسيره المؤثر فى الجزء الرابع من تفسير المنار (ر)

خولا ، ويغتصبوا جميع حقوقهم تعليما لهم وتهذيباً . وتصفية وتطهيراً كما يصفى الذهب الابريز بالنار

قال الله تعالى (ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

لقد أصبح الفساد إلى حد أن أكبر أعداء المسلمين هم المسلمون وأن المسلم إذا أراد أن يخدم ملته أو وطنه قد يخشى أن يبوح بالسر من ذلك لأخيه إذ يحتمل أن يذهب هذا إلى الأجانب المحتلين فيقدم لهم بحق أخيه الوشاية التي يرجو بها بعض الزلفى . وقد يكون أمله بها فارغاً [1]

---

(١) لم يخلُ بلد من بلدان الاسلام من هؤلاء الخائنين الذين تجعلهم دول الاستعمار مطايا لها فى الاستيلاء على تلك البلدان وهم يسعون بين أيديها فى كل دسيسة ويدلونها على عورات المسلمين وما ينكرون أنهم بهذا العمل يخونون انفسهم وما يشعرون أنهم أشبه بمن يصعد على الشجرة ويشرع بقطع جذعها من تحته فيسقط هو عنها بما كسبت يداه . قال الله تعالى (وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ) (ش)

ولله در الملك ابن سعود حيث يقول : ما أخشى على المسلمين إلا من المسلمين . ما أخشى من الأجانب كما أخشى من المسلمين(١)

وهو كلام أصاب كبد الصواب ، فانه مامن فتح فتحه الأجانب من بلاد المسلمين إلا كان نصفه أو قسم منه على أيدى أناس من المسلمين منهم من تجسس للأجانب على قومه ، ومنهم من بث لهم الدعاية بين قومه ، ومنهم من سل لهم السيف فى وجه قومه ، وأسال فى خدمتهم دم قومه

فأين إسلامهم وإيمانهم من قوله تعالى (إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ) وقوله (وَمَنْ يَتَوَلَّهُم مِّنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ) وقوله

---

(١) وقال فى محفل حافل بحجاج الأقطار ـ وقد طالبه مصرى أزهرى بمحاربة الانكليز والفرنسيس المعتدين على المسلمين ذاكراً عداوتهم لهم ـ الانكليز والفرنسيس معذورون إذا عادونا لأنه لايجمعنا بهم جنس ولا دين ولا لغة ولا مصلحة ، ولكن المصيبة التى لاعذر لأحد فيها أن المسلمين أصبحوا أعداء أنفسهم ، وأنا والله لاأخاف الأجانب وإنما أخاف من المسلمين ، فلو حاربت الانكليز لما حاربونى إلا بجيش من المسلمين (ر)

(إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) وقوله (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

أفبمثل هذا تكون طاعة الله ورسوله ؟ أم بمثله تكون أخوة الايمان وولايته وولاية أهله ؟

أو لمثل هؤلاء يعد الله العز والنصر والتمكين فى الأرض وهم سعاة بين أيدى الأجانب على ملتهم ووطنهم وقومهم ؟ كلما عاتبهم الانسان على خيانة اعتذروا بعدم إمكان المقاومة، أو باتقاء ظلم الأجنبي، أو بارتكاب أخف الضررين ؟ وجميع أعذارهم لا تتكئ على شيء من الحق، ولقد كانوا قادرين أن يخدموا ملتهم بسيوفهم فان لم يستطيعوا فبأقلامهم فان لم يستطيعوا فبألسنتهم، فان لم يستطيعوا فبقلوبهم[1] فأبوا

---

(١) إشارة إلى حديث « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده . فان لم يستطع فبلسانه . فان لم يستطع فبقلبه . وذلك أضعف الايمان » رواه أحمد ومسلم وأصحاب السنن كلهم وهذا فى وجوب تغيير المنكرات يفعلها المسلم فماذا يقال فى مقاومة هدم الاسلام من أساسه (ر)

إلا أن يكونوا بطانة للأجانب على قومهم ، وأبوا إلا أن يكونوا رواداً لهم على بلادهم ، وأبوا إلا أن يكونوا مطايا للأجانب على أوطانهم . وتراهم مع ذلك وافرين ناعمى البال ، متمتعين بالهناء وصفاء العيش ، وهم يأكلون مما باعوا من تراث المسلمين ، ومما فجّروا من دماء المسلمين ، وينامون مستريحين . مثل هؤلاء ليس لهم وجدان يعذبهم من الداخل ولا نجد من المسلمين من يجرؤ أن يعذبهم من الخارج[1]

لم نكن لنطلق الكلام اطلاقاً على العالم الاسلامى فى هذا الموضوع فان الأمة الأفغانية مثلا لا يمكن أحداً أن يحطب فيها فى حبل الأجانب علناً ويبقى حياً ، والنجديون لا يوجد فيهم من يجرأ أن يمالئ الأجانب على قومه ، و المصريون قد ارتقت تربيتهم السياسية كثيراً عن ذى قبل فأصبحت مجاهرة أحدهم بالميل للأجنبي أو تفضيل حكم الأجنبي

---

(١) أما فى فلسطين فقد تجرأ المجاهدون أخيراً على تعذيب الخائنين ولقى كثير من هؤلاء جزاءهم الأوفى وجاء الوقت الذى عرف فيه خائن قومه أنه (لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ) فعسى أن يكون فى ذلك عظة وعبرة لسائر العالم الاسلامى (ش)

خطراً عليه ، فأما فى سائر بلاد الاسلام فمن شاء من المسلمين أن يخلع الرسن ويجاهر بالعصوبة لعدو دينه وبلده فلا يخشى شراً ، ولا يحاذر قلقاً ولا أرقاً .

أفلمثل هؤلاء يقول الله تعالى : (وَعَدَ اللهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَى لَهُمْ ، وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْئًا) ؟

حاشا لله أن يكون تعالى عنى بهؤلاء « المسلمين » الذين يخونون ملتهم ويسعون بين يدى أعدائها ويناصبون إخوانهم المداوة ابتغاء مرضاة الأجانب والحصول على دنيا زائلة وحطام فان ، كيف وقد قرن الايمان بلازمه وهو عمل الصالحات ؟ بئسما شروا به أنفسهم . وكذلك لايعنى الله بهؤلاء المسلمين الذين إن لم يكونوا خامروا على قومهم ، وسعوا بين أيدى الأجانب فى خراب أمتهم ، وأوطأوامنا كبهم لركوب الغريب الطامح ، فانهم اكتفوا من الاسلام بالركوع والسجود ، والأوراد والأذكار ، وإطالة السبحة ، والتلوم فى السجدة ، وظنوا أن هذا هو الاسلام ، ولو كان

هذا كافياً فى إسلام المرء وفوزه فى الدنيا والأخرى لما كان القرآن ملآن بالتحريض على الجهاد ، والايثار على النفس ، والصدق والصبر ، ونجدة المؤمن لأخيه ، والعدل والاحسان ، وجميع مكارم الأخلاق . ولو كان هذا كافياً لأجل التحقق بالاسلام لما قال الله تعالى (قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) (١)

أفيقدر أخونا الشيخ بسيونى عمران أو غيره أن يقول ان المسلمين اليوم إلا النادر الأندر ، والكبريت الأحمر ، يفضلون الله ورسوله على آبائهم وأبنائهم وإخوانهم وأزواجهم وتجارتهم وأموالهم ومساكنهم أو يؤثرون حب الله ورسوله — وإنما حب الله ورسوله إقامة الاسلام — على الجزء اليسير من أموال اقترفوها . وتجارة يخشون كسادها ؟

لنعمل هذه التجربة . . فبضدها تتبين الأشياء

---

(١) راجع تفسير الآية وما قبلها فى ص ٢٢٤ : ٢٤٢ ج ١٠ من تفسير المنار (ر)

لنفرض أن مسألة تنصير البربر دخلت فى طور النجاح ، وانتدب البابا الكاثوليكيين الذين فى العالم لبذل الأموال اللازمة لهذا التحويل الذى تتوخاه فرنسة فى البربر من دين الاسلام إلى دين النصرانية ، فكم مليونا تظن من الجنيهات يدر على المبشرين والرهبان والراهبات لبناء الكنائس والمدارس والملاجىء والمستشفيات ومراكز الأسقفيات وما أشبه ذلك لاتمام هذا العمل الذى تضم به الكثلكة ثمانية ملايين من البرابر إلى الأربعمائة مليون كاثوليكى الذين فى العالم ؟

لاشك أن الجواب يكون : عدة ملايين تجمع فى بضعة أشهر. فان قيل للبروتستانتيين تعالوا فقد أذنا لكم فى تنصير البرابرة فابذلوا فى هذه السبيل ما أمكنكم ، فانها تدر حينئذ الملايين بقدر ضعفى مايدر من الكاثوليكيين وفى مدة أقصر من المدة التى يجتمع فيها المال الذى يجود به هؤلاء

فلنقل للمسلمين : ان البرابرة صاروا على شفا الخروج من الاسلام ، وإن الأس فى هذا الصبوء عن دين الاسلام هو الجهل . فعلينا أن نرسل إليهم علماء ووعاظا ليتفقهوا فى الدين، وأن نبنى لهم المساجد والمدارس والكتاتيب والملاجىء إلى

غير ذلك من الوسائل التى تمسك بحجزاتهم عن مفارقة الاسلام والمسلمين

فكم تظن المبلغ الذى يجود به المسلمون بعد اللتيا والتى لهذا العمل؟ لا أظن أنهم يجودون بما يتجاوز جزءاً من مائة مما يبذله الكاثوليك أو البرتستانت (١)

فهذه هى حمية المسيحيين على دينهم، وهذه هى حمية المسلمين.

---

(١) شاع أن المنبوذين من الهنود يريدون فراق مذهب الهنادك وأن منهم من شرح الله صدره للاسلام فأرسل الأستاذ الأكبر شيخ الأزهر وفداً من علماء الشريعة إلى الهند ليتحقق هل ثمة أمل فى هداية المنبوذين هؤلاء أم ذاك نفخ فى غير ضرم وعلم المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها خبر إرسال هذه البعثة الأزهرية إلى الهند ولم تتحرك همة واحد منهم إلى تخصيص مايوازى القطمير لأجل هداية هؤلاء المنبوذين الذين يزيد عددهم على ستين مليوناً . هذا بينما المبالغ التى يجمعها المسيحيون فى كل عام لأجل تغذية التبشير المسيحى فى آسية وافريقية تقدر بعشرين إلى ثلاثين مليون جنيه فهل تطمع هذه الأمة أن تجارى تلك الأمة ؟ وبينهما كل هذا الفرق .

(ش)

ومن الناس من يسأل عن أسباب انحطاط المسلمين وقصورهم عن مباراة سواهم ، ولو تأمل فى هـذه الفروق فى النهضة والحمية لوجد عندها الجواب الكافى

ومن أغرب الأمور أن نرى الأوربيين ودعاتهم وتلاميذهم من الشرقيين بعد هذا كله يتهمون المسلمين بالتعصب الدينى وينبزونهم بلقبـه ، وينتحلون لأنفسهم التساهل فى الدين ! إن هذا والله لعجب عجاب .

وها أنذا الآن فى كتابتى هـذه التى معناها الدفاع لا التجاوز ، والأستاذ الأكبر صاحب المنار ، وعبد الحميـد بك سعيد رئيس جمعية الشبان المسـلمين وغيرنا من المدافعين عن حق الاسلام والرجال الذين يبغون منع الاعتداء على الاسلام وينادون المسلمين ليتنبهوا للخطر المحدق بهم ـ متهمون بالتعصب الدينى ومنبوزون بهذه الـكلمة ، لا بين غير المسلمين فقط ، بل بين المسلمين الجغرافيين أيضاً ـ أعنى الذين يتباهون بأن سياستهم «لا دينية» وطالما صرحوا بأنهم لا يقيمون للدين وزناً ، وطالما تزلفوا إلى المسيحين بكونهم هم لا يدافعون عن الدين الاسلامى كما يدافع زيد وعمرو . . . وهؤلاء فئة معروفة يعرفهم الناس وهم يعرفون أنفسهم ولو فـكر المسيحيون فى شأنهم لعلموا

أنهم ليسوا على شيء وأنهم لايستحقون الاحترام منهم لأن الذى يتزلف إلى الناس بمثل هذه الطرق حرى بأن لا يكون أهلا للثقة ولا للكرامة وما يزين المرء شيء مثل الاستقامة واستواء الباطن والظاهر

فالمسلم إذاً لايخلص من لقب « متعصب » إلا إذا سمع أن الفرنسيس يحاولون تنصير البربر فمر بذلك كأن لم يسمع شيئاً ، وإلا إذا سمع أن الهولانديين نصروا مائة ألف ـ وقد زعم أحد نواب البرلمان الهولاندى أنهم فازوا بتنصير مليون مسلم من مسلمى الجاوى ـ وهز كتفه قائلا : أنا لا يهمنى أكان الجاوى مسلماً أم مسيحياً . . . ـ هنالك «المسلم» يصير «راقياً» ويعد «عصريا» ويصير محبوباً ويقال فيه كل خير ! ؟

وأما الأوربى فله أن يبذل القناطير المقنطرة على بث الدعاية المسيحية بين المسلمين ، وله أن يحميها بالمدافع والطيارات والدبابات ، وله أن يحول بين المسلمين ودينهم بالذات وبالواسطة، وله أن يدس كل دسيسة ممكنة لهدم الاسلام فى بلاد الاسلام ، وليس عليه حرج فى ذلك ، ولا يسلبه هذا العمل صفة «راق» و «متمدن» و « عصرى » وأغرب من هذا أنه لايسلبه نعت «مدنى» و«لادينى» و«متساهل»

وهؤلاء « المسلمون الجغرافيون » برغم هذه الشواهد الباهرة للأعين ، وبرغم ماعملته جمهورية فرنسة « اللادينية » فى قضية البربر لمآرب دينية كاثوليكية ، وبرغم حماية هولاندة لمبشرى الانجيل فى الجاوى ، وبرغم قرار الحكومة البلجيكية رسمياً إكمال تنصير أهل الكونغو[1] ، وبرغم منع الانكليز فى الأوغاندة وفى دار السلام ـ وكذا السودان ـ بث الدعاية الاسلامية بين الزنوج ، وبرغم أمور كثيرة لايسعنا الآن

---

(١) أهل الكونغو ١٢ مليوناً من النفوس كان جميعهم فتيشيين فلما استولى البلجيكيون على الكونغو قرروا تنصيرهم ورأيت من عدة سنوات برنامج حكومة بلجيكا فاذا من جملة أركانه تنصير أهل الكونغو وبالفعل تنصّر من زنوج الكونغو نحو من مليون ونصف إلى الآن ولما كان المسلمون قد دخلوا إلى الكونغو من مدة طويلة فأقبل الأهالى هناك على الاسلام حتى بلغ عدد المسلمين فى الكونغو ١٥٠ الف نسمة خشيت بلجيكا إنتشار الاسلام فى تلك المستعمرة وصارت تعارض نموه فيها وتطرد المسلمين وتضيق عليهم ولم تبال بما فى ذلك من الخلل بمبدأ الحرية الدينية ولاسمعت لومة لائم (ش)

شرحها ، لايزالون يخدعون المسلمين قائلين لهم : إن أوربة قد رفست الدين برجلها وصارت على خطة لادينية وبذلك قد اتسق لها الرقى ونجحت ونحن لن نفلح مادمنا سائرين على خطة إسلامية [1]

قد قام ببث هذه السفسطة أناس فى تركيا ووجدوا ممن تلقاها بالقبول عدداً كبيراً . وترى أناسا فى مصر والشام والعراق وفارس يقولون بها ويكابرون فى المحسوس ولا يبالون ، لأنهم يجدون على كل الأحوال من الأغرار من يصدقهم (فَإِنَّهَا لَاتَعْمَى ٱلْأَبْصَارُ وَلَـٰكِنْ تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِى ٱلصُّدُورِ)

اهم اسباب تأخر المسلمين

من أعظم أسباب تأخر المسلمين الجهل ، الذى يجعل فيهم من لايميز بين الخمر والخل ، فيتقبل السفسطة قضية مسلمة ولا يعرف أن يرد عليها

---

(١) وقد صدقوا لكن بمعنى أننا لن نفلح ما دمنا على هذه الخطة التى نكذب بتسميتها إسلامية وأننا انما نفلح إذا قمنا بحقوق إسلامنا كما يقومون بحقوق دينهم أو أشد (ر)

ومن أعظم أسباب تأخر المسلمين العلم الناقص ، الذي هو أشد خطراً من الجهل البسيط ، لأن الجاهل إذا قيض الله له مرشداً عالما أطاعه ولم يتفلسف عليه ، فأما صاحب العلم الناقص فهو لايدرى ولا يقتنع بأنه لايدرى ، وكما قيل : إبتلاؤكم بمجنون خير من ابتلائكم بنصف مجنون ، أقول : إبتلاؤكم بجاهل ، خير من ابتلائكم بشبه عالم

ومن أعظم أسباب تأخر المسلمين فساد الأخلاق ، بفقد الفضائل التى حث عليها القرآن ، والعزائم التى حمل عليها سلف هذه الأمة وبها أدركوا ما أدركوه من الفلاح ، والأخلاق فى تكوين الأمم فوق المعارف ، ولله در شوقى إذ قال :

وانما الأمم الأخلاق ما بقيت   فان هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

ومن أكبر عوامل تقهقر المسلمين فساد أخلاق أمرائهم بنوع خاص ، وظن هؤلاء - إلا من رحم ربك - أن الأمة خلقت لهم ، وأن لهم أن يفعلوا بها ما يشاؤون ، وقد رسخ فيهم هذا الفكر حتى اذا حاول محاول أن يقيمهم على الجادّة بطشوا به عبرة لغيره . وجاء العلماء المتزلفون لأولئك الأمراء ، المتقلبون فى نعمائهم ، الضاربون بالملاعق فى حلوائهم ، وأفتوا

لهم بجواز قتل ذلك الناصح بحجة أنه شق عصا الطاعة ، وخرج عن الجماعة

ولقد عهد الاسلام الى العلماء بتقويم أود الأمراء . وكانوا قديما فى الدول الاسلامية الفاضلة بمثابة المجالس النيابية فى هذا العصر ، يسيطرون على الأمة ، ويسددون خطوات الملك ، ويرفعون أصواتهم عند طغيان الدولة ، ويهيبون بالخليفة فمن بعده إلى الصواب . وهكذا كانت تستقيم الأمور ، لأن أكثر أولئك العلماء كانوا متحققين بالزهد ، متحلين بالورع متخلين عن حظوظ الدنيا ، لا يهمهم أغضب الملك الظالم الجبار أم رضى فكان الخلائف والملوك يرهبونهم ، ويخشون مخالفتهم ، لما يعلمون من انقياد العامة لهم ، واعتقاد الأمة إمامتهم ، إلا أنه بمرور الأيام خلف من بعد هؤلاء خلف اتخذوا العلم مهنة للتعيش ، وجعلوا الدين مصيدة للدنيا ، فسوغوا للفاسقين من الامراء أشنع موبقاتهم ، وأباحوا لهم باسم الدين خرق حدود الدين ، هذا والعامة المساكين مخدوعون بعظمة عمائم هؤلاء العلماء ، وعلو مناصبهم ، يظنون فتياهم صحيحة ، وآراءهم موافقة للشريعة ، والفساد بذلك يعظم ، ومصالح الأمة تذهب ، والاسلام يتقهقر ،

والعدو يعلو ويتنمر ، وكل هذا اثمه فى رقاب هؤلاء العلماء[1]

ومن أعظم عوامل تقهقر المسلمين الجبن والهلع ، بعد أن كانوا أشهر الأمم فى الشجاعة واحتقار الموت ، يقوم واحدهم للعشرة وربما للمائة من غيرهم ، فالآن أصبحوا إلا بعض قبائل منهم يهابون الموت الذى لا يجتمع خوفه مع الاسلام فى قلب واحد . ومن الغريب أن الافرنج المعتدين لا يهابون الموت فى اعتدائهم ، هيبة المسلمين إياه فى دفاعهم ، وأن المسلمين يرون الغايات البعيدة التى يبلغها الافرنج فى استحقار الحياة والتهافت على الهلكة فى سبيل قوميتهم ووطنهم ، ولا تأخذهم من ذلك الغيرة ولا يقولون نحن أولى من هؤلاء باستحقار الحياة ، وقد قال الله تعالى : (وَلَا تَهِنُوا فِى ٱبْتِغَاءِ ٱلْقَوْمِ

---

(١) وفينا هذه المسألة حقها فى المنار وأهمه مقالة فى المجلد التاسع (ص ٣٥٧) عنوانها (حال المسلمين فى العالمين . ودعوة العلماء إلى نصيحة الأمراء والسلاطين) أنحينا فيها باللائمة على علماء هذا العصر لتقصيرهم فى نصيحة الملوك والأمراء ، ويليها آثار عن السلف فى ذلك نشرت فى عدة أجزاء من هذا المجلد (ر)

إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ مَا لَا يَرْجُونَ)

وقد انضم الى الجبن والهلع اللذين أصابا المسلمين اليأس والقنوط من رحمة الله ، فمنهم فئات قد وقر فى أنفسهم أن الافرنج هم الأعلون على كل حال[1] وأنه لا سبيل لمغالبتهم بوجه من الوجوه ، وأن كل مقاومة عبث ، وأن كل مناهضة خرق فى الرأى ، ولم يزل هذا التهيب يزداد ويتخمر فى صدور المسلمين أمام الأوربيين الى أن صار هؤلاء ينصرون بالرعب ، وصار الأقل منهم يقومون للأكثر من المسلمين . وهذا بعكس ما كان فى العصر الأول

يرى الجبناء أن الجبن حزم وتلك خديعة الطبع اللئيم

نسى المسلمون الأيام السالفة التى كان فيها العشرون مسلماً لا غير يأتون من (برشلونة) الى (فرا كسيمة) من سواحل فرانسة ويستولون على جبل هناك ويبنون به حصناً ويتزايد عددهم حتى يصيروا مائة رجل فيؤسسون هناك امارة تعصف ريحها بجنوبى فرانسة وشمالى ايطالية ، وتهادنها ملوك

---

(١) والله يقول (وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

تلك النواحي وتخطب ولاءها ، وتستولى على رؤوس جبال الالب ، وعلى المعابر التى عليها الطرق الشهيرة بين فرانسة وايطالية ، لا سيما معبر سان برنار الشهير ، وتضطر جميع قوافل الافرنج أن تؤدى للعرب المكوس لأجل المرور ، ثم تتقدم هذه الدولة العربية الصغيرة فى بلاد (البيامون) مسافات بعيدة الى أن تبلغ سويسرة وبحيرة (كونستانزة) فى قلب أوربة ، وتضم القسم العالى من سويسرة الى أملاكها وتبقى خمسا وتسعين سنة مستولية على هذه الديار الى أن تتألب الأمم الافرنجية عليها ، ولا تزال تناجزها الى أن استأصلتها ، وكانت تلك العصابة العربية يوم انقرضت لا تزيد على ألف وخمسمائة رجل[1] (وقد نشرنا تفصيل خبرها فى المجلد ٢٤ من المنار)

﴿ شبهات الجهلاء الجبناء وردها ﴾

من السخفاء من يقول : نعم قد كان ذلك ، لكن قبل أن

---

(١) يجد القارئ تفاصيل هذه الغزوات فى كتابنا « غزوات العرب فى سويسرة وجنوبى فرنسة وشمالى ايطالية وجزائر البحر المتوسط » المطبوع من خمس سنوات

يخترع الأفرنج آلات القتال الحديثة ، وقبل المدافع والدبابات والطيارات ، وقبل أن يصير الافرنج إلى ما صاروا إليـه من القوة المبنية على العلم . وهذا القول هو منتهى السخف والسفه والحمـاقة ، فان لـكل عصر علما وصناعة ومدنية تشاكله ، وقد كانت فى القرون الوسطى علوم تشاكلها كما هى العلوم والصناعات والمدنية الحاضرة فى هـذا العصر . وأمور الخلق كلها نسبية ، ولقد كانت فى العصر الذى نتـكلم عنـه آلات قتال ومنجنيقات ودبابات ونيران مركبة تركيبا مجهولا اليوم ، وكانت فى ذلك الوقت كما هى المدافع والرشاشات وقنابر الديناميت وما أشبه ذلك فى هـذه الأيام . على أنه ليست الدبابات والطيـارات والرشاشات هى التى تبعث العزائم ، وتوقد نيران الحمية فى صدور البشر ، بل الحمية والعزيمة والنجدة هى التى تأتى بالطيارات والدبابات والقنابر . وما هذه إلا مواد صماء لا فرق بينها وبين أى حجر ، فالمـادة لا تقدر أن تعمل شيئا من نفسها ، وانمـا الذى يعمل هو الروح ، فاذا هبت أرواح البشر وتحركت عزائمهم فعند ذلك تجـد الدبابات والطيارات والرشاشات والغواصات وكل أداة قتال ونزال على طرف الثمام .

يقولون : الا أن هذا ينبغى له العلم الحديث ، وهذا العلم مفقود عند المسلمين ، فلذلك أمكن الافرنج مالم يمكنهم

(والجواب) أن العلم الحديث أيضا يتوقف على الفكرة والعزيمة ، ومتى وجدت هاتان وجد العلم الحديث ووجدت الصناعة الحديثة . أفلا ترى أن اليابان إلى حد سنة ١٨٦٨ كانوا أمة كسائر الأمم الشرقية الباقية على حالتها القديمة ، فلما أرادوا اللحاق بالأمم العزيزة تعلموا علوم الأوربيين ، وصنعوا صناعاتهم ، واتسق لهم ذلك فى خمسين سنة وكل أمة من أمم الاسلام تريد أن تنهض وتلحق بالأمم العزيزة يمكنها ذلك وتبقى مسلمة ومتمسكة بدينها ، كما أن اليابانيين تعلموا علوم الأوربيين كلها وضارعوهم ولم يقصروا فى شيء عنهم ولبثوا يابانيين ولبثوا متمسكين بدينهم وأوضاعهم . وأيضاً فمتى أرادت أمة مسلمة أدوات أو أسلحة حديثة ولم تجدها ؟ ان ملاك الأمر هو الارادة فمتى وجدت الارادة وجد الشيء المراد

فلو أن أمة من أمم الاسلام أرادت أن تتسلح لوجدت السلاح الحديث اللازم بأنواعه وأشكاله من ثانى يوم . ولكن اقتناء السلاح ينبغى له سخاء بالأموال ، وهم لا يريدون

أن يبذلوا ، ولا أن يقتدوا بالافرنج واليابان فى البذل ، بل يريدون النصرة بدون سلاح وعتاد ، أو السلاح والعتاد بدون بذل أموال ، وإذا تغلب العدو عليهم من بعد ذلك صاحوا قائلين : أين المواعيد التى وعدنا إياها القرآن فى قوله : (وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ) كأن القرآن ضمن المؤمنين النصر بدون عمل وبلا كسب ولا جهاد بالأموال والأنفس ، بل بمجرد قولنا اننا مسلمون ، أو بمجرد الدعاء والتسبيح ؟ وأغرب من ذلك بمجرد الاستغاثة بالأولياء ، فأصبح الكثير من المسلمين وهم عزل من السلاح الحديث وهم غير مجهزين بالعلم اللازم لاستعماله لا يقومون للقليل من الافرنج المسلحين المجهزين ، وصاروا إذا التقى الجمعان تدور الدائرة فى أغلب الأحيان على المسلمين . فتوالى هذا الأمر عليهم مدة طويلة إلى أن فقدوا كل ثقة بنفوسهم ، واستولى عليهم القنوط ، ودب فيهم الرعب ، وألقوا بأنفسهم الى العدو وبعد أن كانوا مسلمين ، صاروا مستسلمين ، وقد ذهلوا عن قوله تعالى: (وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُم مُؤْمِنِينَ * إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ) ونسوا أنه لا يجوز أن

يتطرق اليأس الى قلب أحد لا عقلا ولا شرعاً ، ولا سيما المسلم الذى يخبره دينه بأن اليأس هو الكفر بعينه . وغفلوا عن قوله تعالى فى سلفهم : (ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ) الآيات .

فتجدهم إذا استنهضتهم لمعاونة قوم منهم يقاتلون دولة أجنبية تريد لتمحوهم كان أول جواب لهم : أية فائدة من بذل أموالنا فى هذا السبيل وتلك الدولة غالبة لامحالة ؟ ولو تأملوا لوجدوا أن الاستسلام لايزيدهم إلا ويلا ، ولايزيد العدو إلا استبداداً وجبروتاً ، سنة الله فى خلقه . ولو فكروا قليلا لرأوا أن هذا الشح بالمال على إخوانهم الذين فى مواطن الجهاد لم يكن توفيراً وإنما كان هو الفقر بعينه . لأن الأمة المستضعفة لا تعود حرة فى تجارتها واقتصادياتها ، بل يمتص العدو الغالب عليها كل مافيه علالة رطوبة فى أرضها ، ولا يترك للأمة المستضعفة إلا عظاماً يتمششونها ، من قبيل « قوت لايموت » وكثيراً ما تحصل مساغب ويموتون جوعاً كما يقع كثيراً فى جزائر الغرب والهند وغيرهما ، ترى المجاعات واقعة

فى الهند ولايموت منهـا ولا انـكليزى وتراها تشتد فى الجزائر ولا يموت بهـا إلا المسلم[1] . وما السبب فى ذلك إلا

---

(١) ضن المسلمين بالأموال على القضايا العامة هو الذى شل حركتهم السياسيـة وفت فى عضد قوميتهم إلى أن صارت الأمم الغالبة على أمرهم لاتحسب لهم أدنى حساب ولو كانت تحسب لهم حسابًا ما كان الفرنسيس انتزعوا منهم أملاكهم فى الجزائر حتى صار ٧٥ فى المائة منها ملـكًا خالصًا للفرنسيس وصار ثلث أراضى تونس ملـكا لخمسين ألف افرنسى مع أن الأهالى هم مليونان ونصف مليون مسلم يملـكون الثلثين لا أكثر ، وأيضا لمـا كانت فرنسا ابتزت أهالى المغرب الأقصى ثمانمائة ألف هكتار وسلمتها للمستعمرين الافرنسيين ، ولمـا كانت فرنسا تنفق ثلاثة أرباع ميزانية المغرب المالية على ١٩٠ ألف افرنسى وتنفق الربع الباقى على مسلمى المغرب مع أنهم سبعة ملايين نسمة ومع أن ٨٠ فى المائة من ميزانية المغرب هى من أموال المسلمين كما أثبتناذلك بالأرقام نقلًا عن جريدة الحماية الرسمية التى لايقدر الفرنسيس أن يكابروا فيها وهى ميزانية عدة سنين لا سنة واحدة وقد نقلنا تلك الميزانيات كلها عن جريدة الحماية الرسمية المطبوعة

أن الأجانب قد استأثروا بخيرات البلاد ولم يتركوا للمسلمين إلا الفقر . فقام المسلمون اليوم يعتذرون عن عدم بذل

فى الرباط إلى مجلتنا « لاناسيون آراب » ودعونا الناس إلى تأمل هـذا الحيف الفظيع الواقع على المسلمين الذين يتمتع الافرنسى الواحد من ميزانيتهم بأكثر ممـا يتمتع به ستون مسلما وأغرب من ذلك أن الواحد من يهود المغرب فضلا عن الفرنسيس يستفيدمن الميزانية المغربية أكثر من أربعين مسلماً، وأغرب منه أنه من هذه الميزانية التىأربعة أخماسها من جيوب المسلمين يأخذ المبشرون والقسوس دعاة النصرانية مئات ألوف من الفرنكات لاجل بث المسيحية بين البربر المسلمينوهذا على نسق اعطاء مبشرى النصرانية فىالسودان المصرى إعانات من أموال المسلمين ، فلولا هوان المسلمين على دول الاستعمار وكون هذه لا تقيم لهم وزناً ما كانوا يستخفّون بهم الى هذا الحد الأقصى ولا كان عند الفرنسيس الأربعون مسلما بيهودى واحد ولا الستون مسلماً بافرنسى واحد، ولقد تحديناهم مراراً أن يجيبونا عن هذا الظلم الفاحش فما أجابونا بغير الطعن والقذف والتهمة لنـا بعداوة فرنسا

الأموال لمساعدة إخوانهم بعدم وجودها ، وهذا صحيح إلى حد محدود ، وذلك أنهم بخلوا بها فى الأول فجنوا من بخلهم على الجهاد الذل والخنوع أولًا ، والفقر والجوع ثانياً . فان من سنن الله فى أرضه أن الذل يردفه الفقر ، وأن العز يردفه الثراء ، والمثل العربى يقول : من عز بز ، والشاعر العربى الايادى يقول :

لاتذخروا المال للأعداء انهم   إن يظهروا يأخذوكم والتلاد معًا

هيهات لاخير فى مال وفى نعم   قد احتفظتم بها إن أنفكم جدعًا

والمتنبى يقول :

فلا مجد فى الدنيا لمن قل ماله   ولا مال فى الدنيا لمن قل مجده

فالمسلمون عز عليهم المال ففقدوه ، وعزت عليهم الحياة ففقدوها ، وأبى الله إلا تصديق كلام النبى الموحى إليه حيث

كأن الانسان لا يمكن أن يكون صديقا لفرنسا إلا اذا أهدر فى سبيلها جميع حقوق قومه وهـذا من أغرب الغرائب . ولو تأملوا قليلا لعلموا أن نصحنا لهم بانصاف المسلمين هو نصح عائد إلى مصلحتهم وأن العدو لايشير عليهم باستجلاب قلوب المسلمين أبداً وإنما يريدها حامية بين الفريقين الى ماشاء الله (ش)

يقول « يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تَدَاعى الأكلةُ على القصاع » قالوا : أوَ مِن قلة فينا يومئذ يارسولَ الله ؟ قال « لا ولكنكم غُثاء كغُثاء السيل يُجعلُ الوهنُ فى قلوبكم وينزع من قلوبِ أعدائكم من حبكم الدنيا وكراهيتكم الموت »

هذا الحديث كان رواه لى الشيخ محمد بن جعفر الكتانى الفاسى رحمه الله يوم لقيته فى المدينة المنورة منذ خمس وعشرين سنة ، ثم قرأته فى الكتب واستشهدت به فى مقدمة حاضر العالم الاسلامى ، وألفاظه تختلف فى رواية عن رواية . فالأستاذ صاحب المنار أمتع الله بطول حياته هو الأدرى بأصح رواياته[1] ومعناه ظاهر وهو : أن المسلمين يأتى عليهم يوم يصيرون

---

(١) الحديث رواه أبو داود فى سننه والبيهقى فى دلائل النبوة عن ثوبان مرفوعا بلفظ « يوشك أن تداعى عليكم الأممُ كما تداعى الأكلة إلى قَصعتها » فقال قائل ومن قلة نحن يومئذ ؟ قال (ص) « بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، وسينزعن الله من صدور عدوكم المهابةَ منكم ، وليقذفن فى قلوبكم الوهنُ » ـ قال قائل : يارسول الله وما الوهن قال « حب الدنيا وكراهية الموت »

قوله (ص) « تداعى » أصله تتداعى أى تجتمع ويدعو

فيه مأكلة وتمتد إليهم الأيدى من كل جهة ، فهذا العصر الذى بعضها بعضاً لسلب ملككم كما تتداعى الأكلة وهى جمع آكل ـ كالفعلة جمع فاعل ـ إلى قصعة الطعام ، والغثاء بالضم مايحمله السيل ويلقيه من الزبد والعيدان ونحوها ويضرب مثلا لما لاقيمة له ولافائدة ، والوهن بالنون الضعف ، وإنما سأله السائل عن سببه فأجابه (ص) بأن سببه حب الحياة الدنيا ولذاتها الخسيسة وإيثارها على الجهاد فى الدفاع عن الحقيقة وإعلاء كلمة الله ، وكراهية الموت ولو فى سبيل الحق حرصاً على هذه الحياة الخسيسة

وقد أوردت هذا الحديث فى تفسير قوله تعالى (٦ : ٥٦ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ) الآية ، وأوردت قبله حديث ثوبان الآخر الذى رواه مسلم فى صحيحه قال قال رسول الله ﷺ « إن الله زوى لى الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها ، وان أمتى سيبلغ ملكها مازوى لى منها ، وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض ، وانى سألت ربى لأمتى أن لا يهلكها بسنة عامة ، وأن لا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم (أى ملكهم

نحن فيه هو ذلك اليوم ، وأن المسلمين لا يكون عيبهم يومئذ قلة العدد ، بل يكون عـددهم كثيراً وانما لاتغنيهم كثرتهم شيئا ، لأن الـكثرة بنفسها لاتفيد ان لم تقترن بجودة النوع والـكمية لا تغنى عن الـكيفية[1] ، وعـلة العلل فى ضعف وسلطانهم ومستقر قوتهم) وان ربى قال لى: يامحمد إذا قضيت قضاء فانه لا يرد ، وإنى أعطيتك لأمتك أن لا أهلـكهم بسنة عامة (أى قحط) وأن لا أسلطَ عليهم عدواً من سوى أنفسِهِم فيستبيحَ بيضتهم ولو اجتمع عليهم من بأقطارِها ـ أو قال من بين أقطارها ـ حتى يكون بعضهم يهلك بعضا ويسبي بعضهم بعضا » ورواه أحمد وأصحاب السنن إلا النسائى بزيادة على رواية مسلم هذه ، وكلا الحديثين من أعلام النبوة التى ظهر بها صدقه (ص) بعد قرون من وفاته ورفع روحه إلى الرفيق الأعلى ، فما ذهب شىء من ملك المسلمين إلى أيدى الأجانب الا بخذلان بعضهم لبعض ومساعدتهم للأجانب على أنفسهم، وفى هذه الرسالة للأمير شكيب بعض الشواهد من مسلمى هذا العصر على ذلك . وراجع الموضوع بتفصيله فى تفسير الآية المشار اليها من ص ٤٩٠ — ٥٠١ ج ٧ تفسير (ر)

(١) عدد المسلمين اليوم لا يقل عن ثلاثمائة وسبعين مليونا

المسلمين ذلك اليوم هو الجبن والبخل ، صريح ذلك فى قوله ﷺ « من حبكم الدنيا وكراهيتكم الموت[١] »

وقد يناهز الأربعمائة مليون فيالهامن قوة لو كان جميعهم رجالا كالرجال المتغلبين عليهم(ش)

(١) نعم يخشى المسلمون دول الاستعمار فيطيعونها حتى على آبائهم وأبنائهم وأعز الناس لديهم وأغلى الأمور عليهم وعلى دينهم ووطنهم وقوميتهم وثقافتهم وإن سألتهم عن أسباب هذه الطاعة العمياء قالوا لك إننا ان لم نطعهم أهلكونا ونحن لاقبل لنا بمقاومتهم ونسوا أنهم عندما تقذف بهم دول الاستعمار فى حروبها يلاقون فيها الموت الذى لم يكونوا ليلاقوا أعظم منه لو كانوا عصوها (قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ) ولعمرى ان تعليل هذه الحالة الروحية التى نجدها عند المسلمين الخاشعين لدول أوربة المستعمرة ليتعذر على نُطُس أطباء الاجتماع جميعا إذ لا يمكن أن يعقل صنفان من الموت أحدهما مر المذاق لا تقوى على مواجهته النفس وهو الموت فى مقاومة الأجنبي المتغلب والثاني مقبول الطعم سهل الاقتحام وهو الموت فى مقاتلة عدو ذلك المتغلب . لاجرم أن هذه حالة روحية شاذة لا تفسر ولا تعلل إلا بالمرض

ومن المعلوم أن الافراط فى حب الدنيا يحرم الانسان وعدم اعتدال المزاج وكون الرعب المستمر الذى أوقعه فى قلوبهم الأجنبي المتغلب انتهى بأن أوجد فى نفوسهم هذه الحالة الغريبة التى لم أجد لها شبيها فى التاريخ إلا ما كان منهم يوم زحف التتار المغوليين إلى بلاد الاسلام ونسفوا تلك الحضارات الزاهرة التى كانت فى تركستان وايران والعراق وذبحوا الملايين من أهلها ذبح الشياه ودمروا بغداد دار الخلافة وأهلكوا الخليفة المستعصم العباسى تحت أرجل الفيلة وجعلوا من جماجم القتلى آكاما عالية فوصل الرعب بقلوب المسلمين إلى أن صار المغولى الواحد يدخل على المائة منهم فيقتلهم جميعا وأسلحتهم فى أيديهم ولا تحدثهم نفوسهم بأدنى مقاومة ولا يقال لمثل هذا انه مجرد انكسار قوى معنوية بل هو أبعد مدًى من هذا بكثير فان انكسار القوى المعنوية لايسلب المغلوب كل آثار النشاط للمقاومة وإنما كان ذاك مرضاً زاغت به الطبائع البشرية عن مركزها وعتهاً استولى على العقول وجردها من خواص الادراك. وقد حدث أحد المؤرخين برواية غريبة عن رجل شهد تلك الوقائع بعينه فقال مامعناه : فررت من التتار فساقنى القدر إلى بيت وجدت فيه

التمتع بها وأن الغلو فى المحافظة على الحياة تكون عاقبته زيادة ثمانية عشر رجلاً كلهم تخبأوا فيه لعلهم ينجون من الموت فبينما نحن جالسون إذ دخل علينا أحد التتار فرآنا جميعاً وعلى وجوهنا غبرة الموت ولم يكن معه سلاح يقتلنا به فقال لنا : ابقوا هنا حتى آتى بسكين وأذبحكم ومضى ليأتى بالسكين . فلما ذهب قلت للجماعة: ماذا تنتظرون؟ قالوا لا ننتظر شيئاً سوى الموت . قلت لهم : كيف ننتظر الموت من يد واحد ونحن عصبة ١٩ رجلاً ؟ قالوا : ما ذا تريد أن نصنع ؟ قلت : نقتله . قالوا : لا تمتد أيدينا اليه لأننا نخاف . قلت : مم تخافون ؟ إن كان خوفكم من الموت فهو قاتلكم على كل حال . قال : ومازلت أشجعهم إلى أن اقتنع بكلامى اثنان منهم لا غير . فلما رجع المغولى وبيده السكين الذى يريد أن يقتلنا به هجمنا عليه نحن الثلاثة ونزعنا السكين من يده وقتلناه به وخرجنا ونجونا . هذا وبقى المسلمون فى رعب من التتار غير ممكن التعليل إلى أن خرجت اليهم العساكر المصرية فى زمن الملك قطز فتلاقى الجمعان فى عين جالوت من فلسطين وانهزم التتار هزيمة شنيعة ثابت بعدها عزائم المسلمين اليهم وأخذوا يفتكون بالتتار وصار هؤلاء عندهم كسائر الناس ولو لم يدخل التتار فى

التعرض للهلاك[١] هذه من سنن الله فى خلقه أو من النواميس الطبيعية كما يقال فى هذا العصر فالقرآن يأمر المسلم بأن يحتقر الحياة والمال وكل عزيز فى سبيل الله ويأمر المسلم أن يثبت ولا ييأس، وأن يصبر ولا يتزلزل مهما أصيب وتراه يقول : (وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا ٱسْتَكَانُوا وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّابِرِينَ)

الاسلام لكان المسلمون أبادوهم . وخلاصة القول أن المسلمين كلما آثروا السلامة ازدادوا موتاً وكلما احتقروا الحياة ازدادوا حياةً وإلى هذا أشار الله تعالى فى كتابه الكريم حين يقول (يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ. إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَٱللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (ش)

(١) إن الله تعالى يقول : (وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ) أى ان عدم انفاقكم فى سبيل الله هو التهلكة بعينها . وقد أصابت المسلمين تهلكة عدم الانفاق وصدق فيهم ما حذرهم الله منه (ش)

هكذا يريدالله ليكون المسلمون ، فان لم يكونوا هكذا بصريح نص القرآن ، فكيف يستنجزون الله عداته بالنصر والتمكين والسعادة والتأمين ؟

(ضياع الاسلام بين الجامدين والجاحدين)

ومن أكبر عوامل انحطاط المسلمين الجمود على القديم ، فكما أن آفة الاسلام هى الفئة التى تريد أن تلغى كل شىء قديم ، بدون نظر فيما هو ضار منه أو نافع ، كذلك آفة الاسلام هى الفئة الجامدة التى لاتريد أن تغير شيئا ، ولاترضى بادخال أقل تعديل على أصول التعليم الاسلامى ظناً منهم بأن الاقتداء بالكفار كفر ، وأن نظام التعليم الحديث من وضع الكفار فقد أضاع الاسلام جاحد وجامد

أما الجاحد فهو الذى يأبى إلا أن يفرنج المسلمين وسائر الشرقيين ويخرجهم عن جميع مقوماتهم ومشخصاتهم ، ويحملهم على انكار ماضيهم ، ويجعلهم أشبه بالجزء الكيماوى الذى يدخل فى تركيب جسم آخر كان بعيداً فيذوب فيه ويفقد هويته . وهذا الميل فى النفس إلى انكار الانسان لماضيه واعترافه بأن آباءه كانوا سافلين ، وأنه هو يريد أن يبرأ منهم

لا يصدر إلا عن الفسل الخسيس ، الوضيع النفس ، أو عن الذى يشعر أنه فى وسط قومه دنىء الأصل ، فيسعى هو فى انكار أصل أمته بأسرها لأنه يعلم نفسه منها بمكان خسيس ليس له نصيب من تلك الأصالة ، وهو مخالف لسنن الكون الطبيعية التى جعلت فى كل أمة ميلا طبيعيا للاحتفاظ بمقوماتها ومشخصاتها من لغة وعقيدة وعادة وطعام وشراب وسكنى وغير ذلك إلا ماثبت ضرره [1]

محافظة الشعوب الافرنجية على قوميتها

فلننظر إلى أوربة ـ لأنها هى اليوم المثل الأعلى فى ذلك ـ فنجد كل أمة فيها تأبى أن تندمج فى أمة أخرى . فالانكليز يريدون أن يبقوا إنكليزاً ، والافرنسيس يريدون أن يبقوا افرنسيساً ، والألمان لا يريدون أن يكونوا إلا ألمانا ، والطليان لا يرضون أن يكونوا إلا طليانا ، والروس قصارى همهم أن يكونوا روسا ، وهلم جرا

(١) قال المستر شمبرلين ناظر خارجية انكلترة سابقا : نحن الانكليز أمة تقليدية محافظة على القديم لا نرضى بتبديل شىء من أوضاعنا إلا إذا ثبت ضرره ولم يبق مناص من تغييره (ش)

ومما يزيد هذا المثال تأثيرا فى النفس أن الايرلنديين مثلا أمة صغيرة مجاورة للانكليز وقد بذل هؤلاء جميع مايتصوره العقل من الجهود ليدمجوهم فى سوادهم مدة تزيد على سبعمائة سنة ، فأبوا أن يصيروا انكليزا ولبثوا ايرلنديين بلسانهم وعقيدتهم وأذواقهم وعاداتهم

وفى فرانسة نفسها تأبى أمة « البريتون » الا أن تحافظ على أصلها . وفى جنوبى فرانسة جيل يقال لهم «الباشكنس» احتفظوا بقوميتهم تجاه القوط ، ثم تجاه العرب ، ثم تجاه الاسبان ، ثم تجاه الفرنسيس ، وجميعهم مليون نسمة . وهم لايزالون على لغتهم وزيهم وعاداتهم وجميع أوضاعهم

والفلمنك يأبون أن يجعلوا اللغة الافرنسية لغتهم والثقافة الافرنسية ثقافتهم ، ولم يزالوا يصيحون فى بلجيكا حتى اضطرت دولة بلجيكا إلى الاعتراف بلغتهم لغة رسمية .

وفى سويسرة ثلاثة أقسام : القسم الألمانى وهو مليونان وثمانمائة ألف والقسم المتكلم بالافرنسية وهو ثمانمائة ألف ، والقسم المتكلم بالطليانية وهو أكثر قليلا من مائتى ألف ، وكل قسم منها محافظ على لغته وقوانينه ومنازعه مع أنهم

كلهم متحدون فى مصالحهم السياسية وهم يعيشون فى مملكة واحدة .

وان الدانمرك وبلاد الاسكنديناف وهولاندة فروع من الشجرة الألمانية لامراء فى ذلك ، لكنهم لايريدون الاندماج فى الألمان ولا العدول عن قومياتهم . وبقى «التشيك» مئين من السنين تحت حكم الألمان وبقوا تشيكا ، واستأنفوا بعد الحرب العامة استقلالهم السياسى ، بعد أن حفظوا لسانهم واستقلالهم الجنسى مدة خمسة قرون

وقد هذب الألمان أمة المجر وعلموهم ورقوهم ولكنهم لم يتمكنوا من ادماجهم فى الألمانية ، فتجدهم أحرص الأمم على لغتهم المغولية الأصلية وعلى قوميتهم المجرية

ولبثت الروسية العظيمة من مائتين إلى ثلاثمائة سنة تحاول إدخال بولونية فى الجنس الروسى وحمل البولونيين على نسيان قوميتهم الخاصة بحجة أن العرق السلافى يجمع بين البولونيين والروس ، ففشلت جميع مساعيها فى ادماج البولونيين فيها وعاد هؤلاء بعد الحرب العامة أمة مستقلة فى كل شىء . وذلك لأنهم لم يتخلوا طرفة عين عن قوميتهم

وليس من العجيب أن لاتريد أمة عددها ٣٠ مليونا

الاندماج فى غيرها . ولـكن الاستونيين وهم مليونان فقط انفصلوا عن الروسية ولم يقبلوا الاندماج فيها وأحيوا استقلالهم ولسانهم المغولى الأصـل وجعلوا له حروفاً هجائية . ومثلهم أهالى فنلاندة المنفصلون عن الروسـية أيضاً . وقد خابت مساعى الروس فى ادماج الليتوانيين من هذه الأمم البلطيكية فى الجنس الروسى ، وانتفضوا بعد الحرب العامة أمة مستقلة كما كانوا مستقلين قومياً ، وجميعهم أربعة ملايين . وأقل منهم جيرانهم الليتونيون [1] الذين هم مليونان لاغير ، ومع هذا قد انفصلوا بعـد الحرب وأسسوا جمهورية كسائر الجمهوريات البلطيكية لأنهم من الأصل لبثوا محافظين على لغتهم وجنسهم

وقد عجز الروس من جهة كما عجز الألمان من جهة أخرى عن ادخال هذه الأقوام فى تراكيبهم القومية العظيمة لأن كل شعب مهما كان صغيراً لا يرضى بانـكار أصله ولا بالنزول عن استقلاله الجنسى

وقد حفظ الـكرواتيون استقلالهم الجنسى مع إحاطة

---

(١) ليتونيا هى غير ليتوانيا وكلتـاهما من الأمم التى انفصلت عن الروسية بعـد الحرب العامة لاختلاف جنسها عن جنس الروس (ش)

أمتين كبيرتين بهم هم اللاتين والجرمان

وحفظ الصربيون استقلالهم الجنسى مع سيادة الترك عليهم مدة قرون

ولم يزل الأرناؤوط أرناؤوطا منذ عهد لا يعرف بدؤه وهم بين أمتين كبيرتين اليونان والصقالبة أى السلاف

وكذلك البلغار أبوا إلا أن يبقوا بلغاراً فيما بين الروم والسلاف واللاتين . ثم جاءهم الترك فتعلموا التركية لكنهم بقوا بلغاراً

ولا أريد أن أخرج فى الاستشهاد عن أوربة لأنى إن خرجت عن أوربة قالت تلك الفئة الجاحدة : نحن لا نريد أن نجعل قدوة لنا أمماً متأخرة مثلنا

فالأمم التى استشهدنا الآن بها كلها أوربية ، وكلها متعلمة راقية ، وكلها ذوات بلدان ممدنة منظمة؛ وكلها عندها الجامعات والأكادميات والجمعيات العلمية والجيوش والأساطيل الخ

العبرة للعرب وسائر المسلمين برقى اليابانيين

ولكنى أخرج من أوربة إلى اليابان فقط لأن رقى اليابان يضارع الرقى الأوربي وقد تم لليابان كما تم رقى أوربة للاوربيين

أي فى ضمن دائرة قوميتهم ولسانهم وآدابهم وحريتهم ودينهم وشعائرهم ومشاعرهم وكل شيء لهم

فأنقل إلى القراء العرب فقرة من رسالة طويلة جاءت من مراسل أوربى سائح فى اليابان وظهرت فى جريدة « جرنال دوجنيف » بتاريخ ٢٠ اكتوبر (سنة ١٩٣١) فانه يقول :

« إن اليابانى يحب الفن قبل كل شيء ، وإن رأيته ساعياً فى كسب المال فلأجل أن يلذذ بالمال أهواءه المنصرفة إلى الحسن والجمال . وقد انتقش فى صفحة نفسه الشعور القومى الشديد عدا الميل إلى الجمال ، لأنه يفتخر بكون اليابان فى مدة ستين سنة فقط صارت من طور أمة من القرون الوسطى اقطاعية الحكم إلى أمة عظيمة من أعظم الأمم ، ومما لاريب فيه أن الديانة اليابانية هى ذات دور عظيم فى سياسة اليابان (ليتأمل القارئ) وهى فى الحقيقة فلسفة مبنية على الاعتراف بكل ما تركه القدماء لسلائلهم . فاليابانى العصرى قد ائتلف مع جميع احتياجات الحياة العصرية ، لكن مع حفظ الميل الدائم إلى الرجوع إلى ماضيه ومع التمسك الشديد بقوميته ، غير مجيب نداء التفرنج (وفى الأصل التغرب Accidentalisme) الذى لايريد اليابانى أن يأخذ منه إلا ماهو ضروري له لأجل

مصارعة سائر الأمم بنجاح ، ولا شك أن هذا مثال فريد فى تاريخ أمم الشرق الأقصى »

ثم يقول :

« كان اليابانيون يكرهون الأسفار إلى البلدان البعيدة ، ويحظرون دخول الأجانب إلى بلادهم ، ولكن هذا المنع قد ارتفع بعد النهضة العصرية ، وتلافت اليابان مافات بشكل مدهش . والنتائج هى أمامنا إلا أن الماضى لايزال عند اليابانيين مقدساً معظما فى جميع طبقاتهم لأنه فى هذا الماضى المقدس يجد اليابانيون جميع شعورهم بقيمتهم الحاضرة ، فتراهم يكافحون بوسائل المدنية الحديثة التامة التى لاسبيل إلى الحياة بدونها فى أيامنا هذه ، لكن ينبذون كل « تغرب » بمجرد مايجدون أنفسهم فى غنى عنه ، ويعودون مع اللذة إلى شعورهم القومى الخالص الذى به يعتقدون أنهم الأعلون

« وهناك هيا كل « شنتو » ومعابد « زن » والهيا كل البوذية وهى مكرمة معظمة مخدومة بأشد مايمكن من الحماسة الدينية والايمان الثابت كما كانت منذ قرون . والحق أن هذا الاحترام الشديد الذى يشعر به اليابانيون لقديمهم ولمعبوداتهم

هو الذى قام عندهم حصناً منيعاً دون المبادئ الشعوية ، والأفكار الشيوعية المضرة »

ومنذ بضع سنوات ظهر فى فرنسة تأليف جديد عن اليابان للمركيز (لامازلبير) La Mazelière قد أطنبت الجرائد فى وصفه ونشرت عنه جريدة (الديبا) مقالا رنانا ، فنحن نوصى القراء الذين يهمهم أن يعرفوا كيفية إرتقاء اليابان ـ وهو موضوع فى غاية الجلالة لما فيه من الاستنتاج لسائر بلاد الشرق ـ بمطالعة هذا الكتاب الذى لايمكن أن ينسب إلى مؤلفه التعصب لليابان ؛ على أنى رأيته فى الجملة مطابقا لتواريخ ألفها علماء يابانيون متخصصون فى التاريخ . وهذه التواريخ مترجمة من اليابانية إلى الافرنسية . ولا بد لى فى هذه العجالة من نقل بعض فقر من تاريخ لامازلبير المذكور . قال فى أثناء الكلام على تمدن اليابان العصرى وخروج هذه الأمة من عزلتها القديمة مايلى :

« فبدأت اليابان تستعير من أوربة وأمريكا قسما من مدنيتهما المادية ، ومن نظامها العسكرى ، ومن مباحث تعليمها العام ، ومن سياستهما المالية ، فكان المجددون يجتهدون فى أن يقتبسوا من كل شعب مايرونه الأحسن عنده ، فكان

ذلك مشروع تجديد وهدم وإعادة بناء ، وظهرت آثار ذلك فى جميع مناحى الحياة اليابانية »

ثم تكلم على الحرب اليابانية الصينية ، وانتهى إلى قوله الذى نترجمه ترجمة حرفية :

« إن ظفر اليابان بالصين لم يثبت علو الأفكار والمبادئ العلمية التى أخذتها اليابان عن الغرب وكفى ، بل أثبت أمراً آخر وهو أن شعباً آسيويا بمجرد إرادته وعزيمته عرف أن يختار ما رآه الأصلح له من مدنية الغرب (تأمل جيداً) مع الاحتفاظ باستقلاله وقوميته وعقليته وآدابه وثقافته » اهـ

وقبلا كنت نشرت فى الجرائد ـ وما نشرته لم يكن إلا نقطة من غدير ـ خلاصة الحفلات التى أقامها اليابانيون لتتويج عاهلهم منذ سنتين وكيف استمرت مراسم هذا الاحتفال مدة شهر ، وكانت بأجمعها دينية ، وكيف أن الميكادو هو كاهن الأمة الأعظم ، وكيف أنه من سلالة الآلهة (الشمس) وكيف اغتسل فى الحمام المقدس المحفوظ من ألفى سنة ، وكيف أكل مع الآلهة الأرز المقدس الذى زرعته الدولة تحت إشراف الكهنة حتى يكون تام القدسية لاشبهة فيه ،

وكيف كان ثمة فى الحفل ستمائة ألف يابانى وكلهم يهتفون ليحي الميكادو عشرة آلاف سنة إلى غير ذلك

(لماذا لانسمى اليابان وأوربة رجعية بتدينهما)

فلماذا ياليت شعرى تتقدم اليابان هذا التقدم السريع المدهش وتصير هذه الأمة أمة عصرية يضرب برقيها المثل وهى تضرب باعراقها إلى عقائد وعادات ومنازع مضى عليها ألفا سنة ، ويكون امبراطورها هو كاهنها الأعظم ، ولا يقال عنها (رجعية) و (مرتجعة) و (ارتجاعية) ومتأخرة ومتقهقرة (فان كانت اليابان رجعية فرحى بالرجعية)

ولماذا كان ملك انكلترة وامبراطور الهند السيد على ٤٥٠ مليون آدمى فى الأرض من البيض والسمر والصفر والحمر والسود هو رئيس الكنيسة الانكليكانية ومجالسه النيابية تبحث فى جلسات عديدة فى قضية الخبز والخمر هل يستحيلان بمجرد تقديس القسيس الى جسد المسيح ودمه فعلا دون أدنى شك أم ذلك من قبيل الرمز والتمثيل[1] ؟ ولا يقال عنه

---

(١) لم يحدث التاريخ عن مسئلة من مسائل انكلترة الداخلية أخذت فى الأهمية الدور الذى أخذته قضية « الافخاريستا »

انه (رجعى) ولا يقال عن دولته العظمى انها (متأخرة) أو (متقهقرة) فان كانت انكلترة بعد هذا متقهقرة فيا حبذا (التقهقر)

وهى قضية تحول الخبز والخمر الى جسد المسيح . وأصل هذه العقيدة ما رواه الأنجيل من أن السيد المسيح عليه السلام قبل صعوده الى السماء تعشى مع تلاميذه وودعهم ، وبينما هو على المائدة تناول لقمة من الخبز وقال : كلوا هوذا جسدى . وشرب جرعة من الخمر وقال : اشربوا هوذا دمى . فتكونت من هذه الكلمات فى النصرانية عقيدة معناها أن الخبز والخمر يستحيلان الى جسد الرب تماماً وحقيقة لا مجازاً، ولما كان القسيس عندهم هو خليفة المسيح كان لا بد له كل يوم عند التقديس فى الكنيسة أن يتناول لقمة من الخبز ويشرب رشفة من الخمر وهو يتلفظ بنفس الكلمات التى تفوه بها السيد المسيح عليه السلام فى أثناء عشائه مع الحواريين . فمتى فعل ذلك تحول هذا الخبز وهذا الخمر الى جسد الرب حقيقة لا مجازاً ، ولذلك يوضع هذا الخبز ويسمونه القربان فى حُق ثمين فوق المذبح من الكنيسة ويسجدون له وذلك باعتبار أن هذا القربان هو الاله نفسه ، ويسمون وجود الاله فيه « بالحضور الحقيقى » وبالافرنسية Présence réelle وهذا

ولماذا كانت القارة الأوربية كلها مسيحية مفتخرة بمسيحيتها ، تتباهى بذلك فى كل فرصة ، متحدة فى هـذا

من أعظم الأسرار المقدسة عندهم . واذا أشرف المريض على الموت جاء القسيس وتلقى منه الاعتراف بذنوبه وناوله هـذا القربان فقيل انه ذهب الى الآخرة متزوداً الأسرار الالهية . وقد كانت هـذه العقيدة هى عقيدة المسيحيين جميعاً ولا تزال عقيدة أكثرهم الى اليوم الا أنه عنـد ما جرى الاصلاح البروتستانتى تغير الاعتقاد عند اتباعه بقضية الحضور الحقيقى وباستحالة الخبز والخمر اللذين يقدس عليهما القسيس الى جسد الرب ودمه حقيقة لا مجازاً . وقال البروتستانتيون ان هـذا مجاز لا حقيقة وإنه مجرد رمز وتذكار وعدلوا عن وضع القربان فوق المذبح والسجود له باعتبار أنه هو الاله بذاته وصاروا فى كنائس البروتستانت يجعلون هـذا القربان فى تجويف خاص به من الحائط ، ولـكن الـكنيسة الانكليكانية أى الـكنيسة العليا فى انـكلترة لم يتفق رأيها فى قضية القربان فحزب اليمين منها كان باقياً على عقيدته الأصلية وهى أن الخبز والخمر يستحيلان بتقديس الـكاهن إلى جسد الرب حقيقةً

الأمر على ما بينها من عداوات ومنافسات ، ولا ننبزها نحن
بقولنا (رجعية) و (ارتجاعية) والحال ان الديانة التى تدين

لا مجازاً . وحزب الوسط مع حزب اليسار كانا يقولان ان
كلمات السيد المسيح هذه لم تكن إلا رمزاً وإنه لا يمكن أن
يتحول الخبز والخمر تحت تقديس الكاهن إلى جسد الرب
ودمه واعتمدوا فى رفض العقيدة الكاثوليكية على (كتاب
الصلاة) الذى هو دستور الكنيسة الانكليكانية وهو
كتاب وضعه بروتستانتيو الانكليز لمذهبهم يوم انشقوا عن
الكنيسة الرومانية . ولما كانت هـذه المسألة مسئلة خلافية
بين أتباع الكنيسة الانكليكانية وقد عمل فيها كل فريق
برأيه وخيف فيها من انشقاق عام أمرت الحكومة البريطانية
بتأليف مجمع من الأساقفة تحت رئاسة إمامهم الأكبر رئيس
أساقفة كنتربرى لأجل التدقيق فى هـذه المشكلة وحلها على
أحد الوجهين . فانعقد المجمع وذلك منذ أربعين سنة ولم يوفّق
الى حلّ يرضى الفريقين وأخيراً ألحت الحكومة على هؤلاء
الأساقفة بأن يبتّوا فى القضية إن لم يكن بالاجماع فبأكثرية
الآراء فحكموا بالأكثرية وخالف فى الحكم ستة من المطارين
وذلك بأن الخبز والخمر يستحيلان فى قدّاس الكاهن الى جسد

بها أوربة عمرها ١٩ قرناً . وهـذا عهد يصح أن يقال عنه قديم (وقديم جـداً) وهؤلاء اليهود مهما نتـكر عليهم من

المسيح ودمه وعليه تجب عبادتهما والسجود لهما ووضعهما فى أعلى المذبح لا فى كوة من حائط الـكنيسة . وبالاختصار رجع أكثر المطارين فى هذه المسئلة الى العقيدة البابوية ، ولما كان القـانون الأساسى لبريطانية العظمى يوجب أن يكون القول الفصل فى جميع هـذه القضايا الدينية لمجلس اللوردات ولمجلس العموم عملا بكتاب الصلاة الذى هو مرجع الأمة الانكليزية أحيل حكم المطارين هـذا الى مجلس اللوردات ، وكانت للمناقشات فيه جلسات متعددة بلغت من اهتمام الملأ ما لم تبلغه المناقشات فى أية مسئلة . وقيل إن بعض اللوردات ممن بلغ بهم الـكبر عتياً قد حملوا الى المجلس على الأكف حتى لا يفوتهم سماع هـذه المناقشات . وأخيراً أيّد مجلس اللوردة بالأكثرية قرار مجمع الأساقفة ولم يكن ذلك كافياً ، إذ كان لابد لامضاء الحـكم من قرار مجلس الأمة الذى يقال له مجلس العموم . فلمـا جاءت القضية الى مجلس الأمة نزع بأكثرية أعضائه عرق العصبية البروتستانتية وكان فى مقدمتهم ناظر الداخلية البريطانية فنقضوا قرار مجلس اللوردات وحكم

الفضائل فلا نقدر أن ننكر عليهم المقدرة والذكاء والحس العملي والجد الهائل ـ لايزالون يفخرون بتوراة وجدت منذ آلاف السنين ويشاركهم فيها المسيحيون

مجمع الأساقفة وقرروا أن الخبز والخمر لا يستحيلان بالبداهة الى جسد السيد المسيح عليه السلام ودمه وتوكأوا فى ذلك على « كتاب الصلاة » الذى هو دستور الكنيسة الانكليكانية الوحيد ولم يوافقوا مجمع الأساقفة الا على زيادة العبارات التى زادها فى الدعاء لملك انكلترة . وعلى أثر هذا القرار من مجلس العموم استعفى رئيس أساقفة كنتربرى من منصبه .

وإنما أتينا على ذكر هذه الحادثة التى ليست من موضوعنا مباشرة إثباتاً لأمرين أولهما استمساك الأمة الانكليزية بمبادئها الدينية وشدة اهتمامها بهذه المباحث مع أنها فى طليعة الأمم الراقية بلا نزاع والثانى تشدق من يقول ان اوربة نبذت الدين ظهريا ومن يقول ان أوربة فصلت الدين عن السياسة وان هذا الفصل كان سبب نجاحها وانه حرى بالمسلمين أن ينهجوا نهجها ان كانوا يريدون لأنفسهم رقياً كرقى الأوربين وسلطانا فى الأرض كسلطانهم . فأين فصل الدين عن السياسة هنا . وهذا « كتاب الصلاة » هو الذى اعتمد عليه

ولماذا نرى أعظم شبان اليهود رقياً عصرياً يجاهدون فى إحياء اللغة العبرية التى لا يعرف مبدأ تاريخها لتوغلها فى القدم ، ولا يقال عنهم إنهم رجعيون ومتأخرون وقهقريون ؟

وقد نشر وايزمان رئيس الجمعية الصهيونية حديثاً فى جريدة (الماتن) كان من أهم مافخر به وأدلى به كمأثرة ينبغى أن تذكرها لهم الانسانية هو (إن فلسطين الحديثة تتكلم اليوم بأجمعها بلغة الأنبياء) يريد بفلسطين الحديثة فلسطين اليهودية التى قد نشر الصهيونيون فيها اللغة العبرانية القديمة

مجلس العموم فى نقض قرار مجمع الأساقفة ثم قرار مجلس اللوردة . وأين فصل الدين عن السياسة وأنت ترى أن مسئلة دينية بحتة تطرح فى مجلس اللوردة ومجلس النواب ويفصلان فيها فان لم تكن هاته المسئلة دينية فما الدينى إذاً ؟ وإن لم يكن مجلسا الشيوخ والنواب مختصين بالسياسة فما المجالس التى تختص بالسياسة بعدهما ؟ فليتأمل القارئ المنصف مدى التضليل الذى يقوم به المضللون من المسلمين الجغرافيين إما جهلا وتعاميا عن الحقيقة وإما خدمة للاستعمار الاوربى الذى ليس له غرض أعز عليه من أن يأتى على بنيان الاسلام من القواعد (ش)

وأجبروا نشئهم الجديد على أن يتحدثوا بها لتكون اللغة الجامعة لليهود . ومن الذى فعل هـذا ؟ الجواب هم اليهود العصريون الذين هم أشد الناس أخذاً بمبادئ العلم الحديث والحضارة العصرية (وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا ٱلْأَلْبَابِ) وماذا عسانى أحصى من هـذه الأماثيل والعبر فى رسالة وجيزة كهذه ؟

كل قوم يعتصمون بدينهم ومقومات ملتهم ومشخصات قومهم الموروثتين ولا ينبزون بهذه الألقاب إلا المسلمين !

فانه إذا دعاهم داع إلى الاستمساك بقرآنهم وعقيدتهم ومقوماتهم ومشخصاتهم وباللسان العربى وآدابه والحياة الشرقية ومناحيها قامت قيامة الذين فى قلوبهم مرض . . وصاحوا: لتسقط الرجعية . وقالوا : كيف تريدون الرقى وأنتم متمسكون بأوضاع بالية باقية من القرون الوسطى ونحن فى عصر جديد

جميع هؤلاء الخلائق تعلموا وتقدموا وترقوا وعلوا وطاروا فى السماء والمسيحى منهم باق على انجيله وتقاليده الكنسية ، واليهودى باق على توراته وتلموده ، واليابانى باق على وثنه وأرزه المقدس ، وكل حزب منهم فرح بما لديه

وهذا المسلم المسكين يستحيل أن يترقى إلا اذا رمى بقرآنه وعقيدته ومآخذه ومتاركه ومنازعه ومشاربه ولباسه وفراشه وطعامه وشرابه وأدبه وطربه وغير ذلك وانفصل من كل تاريخه ، فان لم يفعل ذلك فلا حظ له من الرقى ؟

فهذا ما كان من ضرر الجاحد الذى يقصد السوء بالاسلام وبالشرق أجمع ويخدع السذج بأقاويله

غوائل الجامدين فى الاسلام والمسلمين

وبقى علينا المسلم الجامد ، الذى ليس بأخف ضرراً من الجاحد ، وان كان لايشركه فى الخبث وسوء النية ، وإنما يعمل مايعمله عن جهل وتعصب

فالجامد هو الذى مهد لأعداء المدنية الاسلامية الطريق لمحاربة هذه المدنية محتجين بأن التأخر الذى عليه العالم الاسلامى إنما هو ثمرة تعاليمه

والجامد هو سبب الفقر الذى ابتلى به المسلمون لأنه جعل الاسلام دين آخرة فقط . والحال أن الاسلام هو دين دنيا وآخرة . وأن هذه مزية له على سائر الأديان . فلا حصر كسب الانسان فيما يعود للحياة التى وراء هذه كما هى ديانات

أهل الهند والصين ، ولا زهده فى مال الدنيا وملكها ومجدها كتعاليم الانجيل، ولاحصر سعيه فى أمور هذه المعيشة الدنيوية كما هى مدنية أوربة الحاضرة

والجامد هو الذى شهر الحرب على العلوم الطبيعية والرياضية والفلسفية وفنونها وصناعاتها بحجة أنها من علوم الكفار . فحرم الاسلام ثمرات هذه العلوم ، وأورث أبناءه الفقر الذى هم فيه وقص أجنحتهم ، فان العلوم الطبيعية هى العلوم الباحثة فى الأرض . والأرض لاتخرج أفلاذها الالمن يبحث فيها(١) فان كنا طول العمر لانتكلم الا فيما هو عائد للآخرة قالت لنا الأرض : اذهبوا اتوا إلى الآخرة فليس لكم نصيب منى . ثم إننا بحصر كل مجهوداتنا فى هذه العلوم الدينية والمحاضرات الأخروية جعلنا أنفسنا بمركز ضعيف بازاء سائر الأمم التى توجهت إلى الأرض ، وهؤلاء لم يزالوا يعلون فى الأرض ونحن ننحط فى الأرض ، إلى أن صار الأمر كله فى يدهم ، وصاروا يقدرون أن يأفكونا عن نفس ديننا فضلًا عن أن

---

(١) كان جدى الأدنى رحمه الله تعالى يقول : ان جار عليك الزمان فعليك أن تجور على الأرض . أى تلح وتجتهد فى استخراج خيراتها (ر)

يملكوا علينا دنيانا ومن ليست له دنيا فليس له دين وليس هذا هو الذي يريده الله بنا وهو الذي قال (وَعَدَ ٱللهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ) الآية وقال (هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي ٱلأَرْضِ جَمِيعًا) وقال (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللهِ ٱلَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَٱلطَّيِّبَاتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ؟ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ) وقال فيما حكاه وأقره (وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا) وعلمنا أن ندعوه بقوله (رَبَّنَا آتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً) الخ

والمسلم الجامد لايدرى أنه بهذا المشرب يسعى فى بوار ملته وحطها عن درجة الأمم الأخرى ، ولا يتنبه لشىء من المصائب التى جرها على قومه اهمالهم للعلوم الكونية حتى أصبحوا بهذا الفقر الذى هم فيه ، وصاروا عيالا على أعدائهم الذين لا يرقبون فيهم إلاًّ ولاذمة ، فهو إذا نظر إلى هذه الحالة عللها بالقضاء والقدر بادئ الرأى ، وهذا شأن جميع الكسالى فى الدنيا يحيلون على الأقدار

هذا الخلق هو الذى حبب الكسل إلى كثير من المسلمين فنجمت فيهم فئة يلقبون « بالدراويش » ليس لهم شغل ولا

عمل ، وليسوا في الواقع إلا أعضـاء مشلولة في جسم المجتمع الاسلامي

وهذا الخلق بعينه هو الذي جعل الافرنج يقولون ان الاسلام جبري لا يأمر بالعمل ، لأن ما هو كائن هو كائن ، عمل المخلوق أم لم يعمل .

آيات العمل المبطلة لتفسير القدر بالجبر والكسل

ولا شيء أدل على فساد هذا الزعم الافرنجي من القرآن الملآن بالحث على العمل وباستنهاض الهمم ، وابتعاث العزائم ، ونوط الثواب والعقاب والفوز والفشل بالعمل الذي يعمله المكلف . قال الله تعالى (وقلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ) وقال تعالى (وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ) وقال تعالى (وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ) وقال تعالى (لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ) وقال تعالى (يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ) وقال تعالى (وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ) أي لا ينقصكم أعمالكم ، وقال تعالى (وإِنْ تَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا) لا يلتكم من لاته يليته أو ولته

يلته بمعنى نقصه ، أى لا يبخسكم من أعمالكم شيئاً ، وقال تعالى (نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ) وقال عز وجل (وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ) وقال عز وجل (وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) وقال عز وجل (أَنِّى لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ) وقال عز وجل (فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ) وقال عز وجل (لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ) وقال عز وجل (إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ) وقال عز وجل (وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ) وقال عز وجل (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) وقال عز وجل (يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا) وقال عز وجل (وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ) وقال عز وجل (فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا) وقال تبارك وتعالى (وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا) وقال تبارك وتعالى (لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِى عَمِلُوا) وقال تعالى (إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا) وقال تعالى (وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ

لَا يُظْلَمُونَ) وقال تعالى (فَمَنْ يَعمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ) وقال تعالى (سَيُجْزَوْنَ ما كانوا يَعمَلُونَ) وقال تعالى (جَزَاءً بِما كانوا يعمَلُونَ) وقال (وَيَقُولُ ذوقُوا ما كُنْتُمْ تَعمَلونَ) إلى غير ذلك مما لا يكاد يحصى من الآيات التي امتلأ بها القرآن ومنها ماهو نص فى مسأتنا هذه كقوله تعالى (وما أَصَابكمْ مِنْ مُصيبةٍ فبما كَسَبَتْ أَيْدِيكمْ) وقوله (أَوَ لمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصيبةٌ قَدْ أَصَبْتم مِثْلَيْهَا قلْتُمْ أَنَّى هذا ؟ قلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكمْ)

ان صاحب السؤال يعلم وأكثر المسلمين لا يعلمون ان هذه الآية خاطب الله تعالى بها أكمل هذه الأمة إيمانا واسلاما وهم أصحاب رسول الله ﷺ إذ تعجبوا من ظهور المشركين عليهم فى غزوة أحد فرد الله عليهم ببيان السبب وهو مخالفتهم أمره ﷺ للرماة الذين يحمون ظهور المقاتلة بألا يبرحوا أماكنهم سواء كان الغلب للمسلمين أو عليهم ، فلما انهزم المشركون خالفوا الأمر لمشاركة المقاتلين فى الغنيمة ، فكر عليهم المشركون حتى شج رأس النبي ﷺ الخ

وكلها ناطقة بأن الاسلام هو دين العمل لا دين الكسل ولا هو دين الاتكال على القدر المجهول للبشر ، كما يقول

الدراويش البطالون : رزقنا على الله عملنا أم لم نعمل ، أو كما يزين للناس بعض مؤلفى الافرنج من أن دين الاسلام دين جمود وتفويض وتسليم ، وان تأخر المسلمين انما نشأ عن ذلك ، ولو كان فى هذه الدعوى ذرة مامن الصحة لما نهض الصحابة أخبر الناس بالاسلام وفتحوا نصف كرة الأرض فى خمسين سنة ، ولكن التسليم الذى يتكلمون عليه ويهرفون فيه بما لا يعرفون إنما هو مقرون بالعمل وبالكدح وبالسعى وإلا فلا يسمى تسليما بل يسمى جموداً ، ويعد بطالة وهو مخالف للقرآن وللسنة . وأما إذا كان التسليم لله مقروناً بالعمل فانه أنفع فى الدنيا والأخرى لأن افراط المرء فى الاعتماد على نفسه يورطه فى البطر إذا نجح ، وفى الجزع إذا فشل . والذى يريده الاسلام إنما هو أن يعقل الانسان ويتوكل [1] وأن يدبر لنفسه بهداية

(١) فى قوله يعقل هنا تورية لاحتماله معنيين : ظاهرهما تحكيم ادراك العقل فى الأمور مع التوكل على الله ، والثانى عقل الناقة المراد به الأخذ بالأسباب مع التوكل ، إذ فيه إشارة إلى حديث الاعرابى المشهور بين الناس حتى صار مثلا «اعقلها وتوكل» وفى رواية «قيدها وتوكل» يعنى ناقته فلم يأذن له ﷺ أن يتركها توكلا على الله تعالى (ر)

عقله الذى جعله الله مرشداً ، ويعلم مع ذلك أن ليس كل الأمر بيده ، وان من الأقدار مالا تدركه الأفكار . وهذا صحيح ، ولما ذكر النبي ﷺ القدر سأله بعض أصحابه ألا نتكل ؟ فقال « اعمَلُوا فكل ميسر لمَا خُلِقَ لَهُ » رواه البخارى ومسلم

ومن أغرب الغرائب أن هؤلاء الافرنج الذين لايفتئون ينعتون الاسلام بالجبرية وينسبون تأخر المسلمين إلى هذه العقيدة ـ التى كان يقول بها فئة قليلة من المسلمين ـ يذهلون عما هو وارد فى الانجيل من آيات القضاء والقدر التى تماثل ما فى القرآن وقد تزيد عليه مثل قوله : لاتسقط شعرة من رؤوسكم إلا باذن أبيكم السماوى . ومثل آى كثيرة لو أردت استقصاءها لطال المقال . ولانجد فى الافرنج الذين هم مغرمون بالعمل وهائمون وراء الكسب ومنكرون للقضاء والقدر فى الجملة ، إلا من يقرأ الانجيل الشريف ويقدسه ويعجب بعبادئه السامية كما نعجب بها نحن . فما بالهم نسوا مافيه من آيات القضاء والقدر ؟ ومابالهم لم يصفوا أقوال المسيح صلوات الله عليه بالجبرية ؟ (يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا) وحقيقة الأمر أن كل ماهو وارد فى الانجيل وكل ماهو وارد فى القرآن من

آيات القضاء والقدر إنما كان مقصوداً به سبق علم الله بكل مايقع[1] ولم يكن مقصوداً به نفى الاختيار والتزهيدُ فى الكسب. وفى حديث الوزنتين والوزنات وغير ذلك من مواعظ الانجيل الشريف مايدل على ماعزاه القرآن إلى صحف ابراهيم وموسى أى وغيرهما من رسل الله (أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى * وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلَّا مَاسَعَى * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى)

---

(١) هذا التفسير قول لبعض المتكلمين وهو أن تعلق علم الله بوجود المخلوقات فى الأزل هو القضاء ووجودها على وفق العلم هو القدر ، وقال بعضهم انه تعلق الارادة الخ والتحقيق أن القدر والمقدار هو النظام الذى جرت به سنن الله تعالى فى التكوين والتدبير والأسباب والمسببات كما يفهم من نصوص الآيات كقوله تعالى (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ) وقوله (وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ) الآية — وقوله فى نظام جعل النطفة فى الرحم (إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ) وقوله (ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَامُوسَى) وقد حققنا المسألة فى المنار والتفسير مرارا (ر)

كون المسلمين الجامدين فتنة لأعداء الاسلام وحجة عليه

ونعود إلى المسلم الجامد فنقول : انه هو الذى طرّق لأعداء الاسلام على الاسلام ، وأوجد لهم السبيل إلى القالة بحقه ، حتى قالوا انه دين لا يأتلف مع الرقى العصرى ، وأنه دين حائل دون المدنية . والحقيقة أن هؤلاء الجامدين هم الذين لاتأتلف عقائدهم مع المدنية ، وهم الذين يحولون دون الرقى العصرى والاسلام براء من جماداتهم هذه .

ان الاسلام هو من أصله ثورة على القديم الفاسد ، وجبٌّ الماضى القبيح ، وقطع كل العلائق مع غير الحقائق ، فكيف يكون الاسلام ملة الجمود ؟ والقرآن هو الذى جاء فيه من قصة ابراهيم عليه السلام (إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ * قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ * قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) وجاء فيه (قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ * قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ؟ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ * قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ ٱلْعَالَمِينَ) وجاء

فيه . (إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ * قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ) وجاء فيه (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ) وجاء فيه . (سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ؟ قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) وغير ذلك من الآيات الداعية إلى الثورة على القديم إذا لم يكن صحيحاً ولم يكن صالحا

على أن الذين يفهمون الاسلام حق الفهم يرحبون بكل جديد لايعارض العقيدة ، ولا تخشى منه مفسدة . ولا أظن شيئاً يفيد المجتمع الاسلامى يكون مخالفاً للدين المبنى على إسعاد العباد . أفلا ترى علماء نجد وهم أبعد المسلمين عن الافرنج والتفرنج . وأنآهم عن مراكز الاختراعات العصرية ، كيف كان جوابهم عند مااستفتاهم الملك عبد العزيز بن سعود أيده الله فى قضية اللاسلكى والتليفون والسيارة الكهربائية ؟ أجابوه انها محدثات نافعة مفيدة ، وأنه ليس فى كتاب الله ولا فى سنة رسول الله لا بالمنطوق ولا بالمفهوم مايمنعها .

أفليس الأدنى لمصلحة الأمة أن تقدر الدولة على معرفة

أى حادث يحدث بمجرد وقوعه حتى تتلافى أمره ؟ أفليس الا نفع للمسلمين أن يتمكن الحاج ببضع ساعات من اجتياز المسافات التى كانت تأخذ أياماً وليالى ؟ لقد سألت الشيخ محمد بن على بن تركى من العلماء النجديين الذين بمكة عن رأيه فى التليفون واللاسلكى فقال لى : هذه مسألة مفروغ منها ، وأمر جوازها شرعا هو من الوضوح بحيث لايستحق الأخذ والرد

ولم تكن مقاومة الجديد خاصة بجامدى الاسلام ، فقد قاومت الكنيسة فى النصرانية كل جديد تقريبا من قول أو عمل ، ثم عادت فيما بعد فأجازته . ولما قال « غاليله » بدوران الأرض كفرته ، ولا يزال يوجد الى اليوم من أحبار النصارى من يكفر كل مخالف لما جاء فى التوراة من كيفية التكوين ، ومن سنتين حوكم أحد المعلمين فى محاكم احدى الولايات المتحدة لقوله بنظرية داروين ومنع من التدريس ، ولكن هذا لم يمنع سير العلم فى طريقه [1]

فالنصارى عندهم جامدون كما عندنا جامدون ، والمسلم

---

(١) وقد تألف فى انكلترة وأمريكة حزب دينى جديد أو جمعية للدعوة الى الايمان بظواهر التوراة فى الخلق والتكوين وكل شىء من غير تأويل (راجع ص ٧٢٣م ٣٠ من المنار) (ر)

الجامد يحارب كل علم غير العلم الديني التقليدي الذي ألفه ، حتى انه ليحارب من لايعتد في دينه الا بالكتاب والسنة ، وينسى أن العلوم الطبيعية والرياضية والهندسة وجر الأثقال والفلك والطب والكيمياء وطبقات الأرض وكل علم يفيد الاجتماع البشري هي علوم دينية ان لم تكن مباشرة فمن حيث النتيجة [1] وكم جرى تدريس هذه العلوم في الأزهر والأموي والزيتونة والقرويين وقرطبة وبغداد وسمرقند وغيرها عندما كان للاسلام دول كبار وأعاظم رجال،وكم نبغ في الاسلام من عظماء جمعوا بين الحكمة والشريعة ، ونظموا بين الحديث والرياضة ، وإن أكبر فيلسوف عربي اشتهر اسمه في أوربة هو القاضي ابن رشد وقد كان من أكابر الفقهاء

---

(١) أي من باب قول العلماء : مالايتم الواجب المطلق إلا به فهو واجب . وقد بينا في تفسير (وأعدُّوا لهم مَّااسْتَطَعْتُمْ مِنْ قوَّةٍ) ان آلات القتال البرية والبحرية والجوية واجبة بنص هذه الآية لأنها من القوة المستطاعة للمسلمين كما هي مستطاعة لغيرهم ، فليس وجوبها بقاعدة مالايتم الواجب إلا به فهو واجب بل بنص القرآن ودلالة المنطوق منه فراجع تفسيرها في ص ٦١ ج ١٠ من تفسير المنار (ر)

مدنية الاسلام

أما زعم من زعم أن الاسلام لم يتمكن من تأسيس مدنية خاصة والاستدلال على ذلك بحالته الحاضرة ، فهو خرافة موه بها بعض أعداء الاسلام من الخارج ، وبعض جاحديه من الداخل ، أما القسم الأول فلأجل أن يصبغوا المسلمين بالصبغة الأوربية ، وأما القسم الثانى فلاجل أن يزرعوا فى العالم الاسلامى بذور الألحاد ، ونحن لاننكر تأثير الدين فى المدنية ولكننا لانسلم بأنه يصح أن يكون لها ميزانا ، وذلك لأنه كثيرا مايضعف تأثير الدين فى الأمم فتتفلت من قيوده وتفسد أخلاقها وتنهار أوضاعها ، فيكون فساد الأخلاق هو علة السقوط ، ولا يكون الدين هو المسؤول ، وكثيراً ماتطرأ عوامل خارجية غير منتظرة فتتغلب على ماأثلته الشرائع من حضارة ، وتزلزل أركانها ، وقد تهدمها من بوانيها ، ولايكون القصور من الشريعة نفسها ، فتأخر المسلمين فى القرون الأخيرة لم يكن من الشريعة بل من الجهل بالشريعة ، أو كان من عدم إجراء أحكامها كما ينبغى . ولما كانت الشريعة جارية على حقها كان الاسلام عظيما عزيزا

وأيّ عظمة أعظم مما كان الاسلام فى أيام عمر بن الخطاب مثلاً . ومدنية الاسلام قضية لا تقبل المماحكة إذ ليس من أمة فى أوربة سواء الألمان أو الفرنسيس أو الانكليز أو الطليان الخ إلا وعندهم تآليف لا تحصى فى (مدنية الاسلام) فلولم تكن للاسلام مدنية حقيقية سامية راقية مطبوعة بطابعه، مبنية على كتابه وسنته ، ما كان علماء أوربة حتى الذين عرفوا منهم بالتحامل على الاسلام يكثرون من ذكر المدنية الاسلامية ، ومن سرد تواريخها[1] ، ومن المقابلة بينها وبين غيرها من المدنيات ، ومن تبيين الخصائص التى انفردت هى بها

فالمدنية الاسلامية هى من المدنيات الشهيرة التى يزدان بها التاريخ العام ، والتى تغص سجلاته الخالدة بآثارها الباهرة . وقد بلغت بغداد فى دور المنصور والرشيد والمأمون من احتفال العمارة ، واستبحار الحضارة وتناهى الترف والثروة ، مالم تبلغه مدينة قبلها ولا بعدها إلى هذا العصر ، حتى كان أهلها يبلغون

---

(١) وقد ألّف عصبة من الأوربيين المستشرقين معلمة إسمها « إنسيكلوبيدية الاسلام » وتحامل فيها بعضهم على الاسلام وبخسوه من أشيائه ولكنهم لم يقدروا أن يجحدوا انفراده بمدنية خاصة به

مليونين ونصف مليون من السكان ، وكانت البصرة فى الدرجة الثانية عنها ، وكان أهلها نحو نصف مليون

وكانت دمشق والقاهرة وحلب وسمر قند واصفهان وحواضر أخرى كثيرة من بلاد الاسلام أمثلة تامة وأقيسة بعيدة فى استبحار العمران ، وتطاول البنيان ، ورفاهة السكان ، وانتشار العلم والعرفان ، وتأثل الفنون المتهدلة الأفنان

وكانت القيروان وفاس وتلمسان ومراكش فى المغرب أعظم وأعلى من أن يطاولها مطاول ، أو يناظرها مناظر ، أو أن يكاثرها مكاثر فى ممالك أوربة حتى هذه القرون الأخيرة

وكانت قرطبة مدينة فذة فى أوربة لايدانيها مدان ، وكان عدد سكانها نحو مليون ونصف مليون نسمة ، وكان فيها نحو سبعمائة جامع ، عدا المسجد الأعظم الذى لما زرته فى هذا الصيف قال لى المهندس الذى كان معى من قبل الحكومة الاسبانيولية : انه يسع بحسب مساحته خمسين ألف مصل فى الداخل و٣٠ ألف مصل فى الصحن ، فجملة من يسعهم هذا المسجد العجيب ثمانون ألفاً من المصلين

ولما ذهبنا إلى آثار قصر الزهراء رأيناها آثار مدينة لا آثار قصر واحد ، وعلمنا أنها تمتد على مسافة تسعمائة متر

طولا فى ثمانمائة متر عرضاً ، والاسبانيون يقولون : مدينة الزهراء . وقال لى المهندسون الموكلون بالحفر على آثارها : انهم يرجون الاتيان على كشفها كلها من الآن إلى خمسين سنة . وحسبك أن غرناطة التى كانت حاضرة مملكة صغيرة فى آخر أمر المسلمين بالأندلس لم يكن فى أوربة فى القرن الخامس عشر المسيحى بلدة تضاهيها ولا تدانيها ، وكان فيها عندما سقطت فى أيدى الاسبانيول نصف مليون نسمة ، ولم تكن وقتئذ عاصمة من عواصم أوربة تحتوى نصف هذا العدد ، وحمراء غرناطة لاتزال يتيمة الدهر إلى اليوم

هذه لمحة دالة من مآثر حضارة الاسلام وغرر أيامه ، وإلا فلو استقصينا كل ما أثر المسلمون فى الأرض من رائع وبديع لم تسع ذلك الجلود الكثيرة المرصوفة طبقاً فوق طبق

وكم حرر المؤرخون الأوربيون تحت عنوان (مدنية الاسلام) كتبا قيمة ومجاميع صور تأخذ بالأبصار ، وان أشد مؤرخى الافرنجة تحاملا على الاسلام لايتعدى أن يحاول التصغير من شأن مدنيته ، وأن ينكر كونه أبا عذرتها ، فقصارى هذه الفئة أن ينكروا كون المسلمين قد ابتكروا

علوما وسبقوا إلى نظريات صارت خاصة بهم ، وغايتهم أن يقولوا : ان المسلمين لم يزيدوا على أن نقلوا وأذاعوا وكانوا واسطة بين المشرق والمغرب . وهذا القول مردود عند المحققين الذين يعرفون للمسلمين علوماً ابتكروها ، وحقائق كشفوها وآراء سبقوا إليها ، فضلا عما زادوا عليه وأكملوه ، وما نشروه ونقلوه ، ومن استرقَ شيئا وقد استرقّه ، فقد استحقه

وبعد فلم نعلم مدنية واحدة من مدنيات الأرض إلا وهى رشح مدنيات سابقة وآثار آراء اشتركت بها سلائل البشرية ومجموع نتائج عقول مختلفة الأصول ، ومحصول ثمرات ألباب متباينة الأجناس.

الرد على حساد المدنية الاسلامية المكابرين

أينسى حساد الاسلام والمكابرون فى عظمة فضله ، الزاعمون أنه إنما نقل وتعلم وقلد واقتدى ، وأنه إنما صلى وراء غيره - أن الغرب كان غلب على الشرق وأن المدنية الشرقية يوم ظهر الاسلام كان أخنى عليها الذى أخنى على لبد ، وأنه هو الذى جددها وأحيا آثارها ، وأقال عثارها ؟ وأنها بعد أن كانت قد امحت ولحقت بالغابرين ، أبرزها من أصدافها ، وجلاها من بعد أن كانت ملفوفة بغلافها ، ونشرها فى الخافقين ، وبلّجها كفاق الصبح لكل ذى عينين ، وأضفى عليها لباس الاسلام الخاص ، ودبجها بديباجة القرآن ، التى لم تفارقها فى شرق ولا غرب ، ولا سهل ولا وعر ، حتى حمل ذلك كثيراً من علماء الافرنج ممن لم يعمه الهوى ، ولم يحد فى التحقيق عن مهيع الهدى ، على أن اعترفوا بأن مدنية الاسلام لم تكن نسخاً ولا نقلا ، وإنما هى قد نبعت من القرآن ، وتفجرت من عقيدة التوحيد

فأما ماترجمته حضارة الاسلام من كتب ، وما أخذته عن غيرها من علوم ، وما أفادته فى فتوحاتها من منازع جميلة ،

وظرائق سديدة ، أخذتها عن غيرها فلا يقدح ذلك فى بكارتها الاسلامية ، ومسحتها العربية ، لأن هذا شأن الحضارات البشرية بأجمعها أن يأخذ بعضها عن بعض ويكمل بعضها بعضا ، فالعلم الحقيق ينحصر فى هذا الحديث الشريف «الحكمة ضالة المؤمن ينشدها ولو فى الصين »[١] وهذه من أقدس قواعد الاسلام .

وعلى كل حال لا يقدر مكابر أن يكابر أن الاسلام كان له دور عظيم فى الدنيا سواء فى الفتوحات الروحية أو العقلية أو المادية ، وأن هذه الفتوحات قد اتسقت له فى دور لا يزيد على ثمانين سنة ، مما أجمع الناس على أنه لم يتسق لأمة قبله أصلا . وكان نابليون الأول لشدة دهشته من تاريخ الاسلام يقول فى جزيرة سنتيهلانة : ان العرب فتحو الدنيا فى نصف قرن لاغير .

---

(١) هذا مضمون حديثين أحدهما «الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها » رواه الترمذى من حديث أبى هريرة ، وروواه غيره بمعناه مع اختلاف فى اللفظ . والثانى «اطلبوا العلم ولو بالصين» وذكره الكاتب فى موضع آخر وهناك نذكر من خرجه (راجع ص ٩٥) (ر)

وتأمل أيها القارئ في أن قائل هذا القول هو بونابرت الذى لم تكن تملأ عينه الفتوحات مهما كانت عظيمة

وتعظم فى عين الصغير صغارها

وتصغر فى عين العظيم العظائم

فهذا رجل عظيم جداً استعظم حادث العرب الذى لم يسبق نظيره فى التاريخ ، وقد بقى دور العرب هو الأول فى وقته ، ولبثوا هم المسيطرون فى الأرض ، لايضارعهم مضارع ، ولا يغالبهم مغالب ، مدة ثلاثة قرون أو أربعة . ثم أخذوا بالانحطاط ، وجعلت ظلالهم تتقلص عن البلدان التى كانوا غلبوا عليها شيئا فشيئا ، وذلك بفتور الهمم ، ودبيب الفساد إلى الأخلاق ، ونبذ عزائم الدين ، واتباع شهوات الأنفس وأشد ما ابتلوا به التنافس على الأمارات والرئاسات ، - ولا سيما بين القيسية واليمانية - ممالولاه لدانت لهم القارة الأوربية بأجمعها ، وكانت الآن عربية كما هو المغرب . فالمصائب التى حلت بالمسلمين إنما هي مما صنعته أيديهم ، ومما حادوا به عن النهج السوى الذى أوضحه لهم القرآن الذى لما كانوا عاملين بحكم آيه علوا وظهروا وكانت لهم الدول والطوائل ، فلما ضعف عملهم به وصاروا يقرءونه بدون عمل ، وانقادوا إلى أهواء

أنفسهم من دونه ، ذهبت ريحهم ، وولى السلطان الأكبر الذى كان لهم ، وانتقصت الأعداء أطراف بلادهم ، ثم قصدوا إلى أوساطها ومازال الأعداء يفتحون من بلدان الاسلام حتى أصبح ثلاثمائة مليون مسلم تحت ولاية الأجانب ولم يبق فى العالم سوى ٧٠ أو ٨٠ مليون مسلم نقدر أن نقول انهم تحت ولاية أنفسهم

ولنضرب الآن بعض أمثلة عن الأمم الأخرى لأجل المقابلة بيننا وبينهم إذ كانت « بضدها تتبين الأشياء »

(اليونان والرومان قبل النصرانية وبعدها)

كان اليونانيون قبل النصرانية أرقى أمم الأرض أو من أرقى أمم الأرض ، وكانوا واضعى أسس الفلسفة ، وحاملى ألوية الآداب والمعارف ، ونبغ منهم من لايزالون مصابيح البشرية فى العلم والفلسفة إلى يوم الناس هذا .

وكان الاسكندر المكدونى أعظم فاتح عرفه التاريخ أو من أعظم الفاتحين الذين عرفهم التاريخ ، حاملا للأدب اليونانى، ناشراً لثقافة يونان بين الأمم التى غلب عليها. وما كانت دولة البطالسة التى لمعت فى الاسكندرية بعلومها وفلسفتها إلا من بقايا فتوح الاسكندر . ثم لم تزل هذه الحالة إلى أن

تنصرت يونان بعد ظهور الدين المسيحى بقليل، فمذ دانت هذه الأمة بالدين الجديد بدأت بالتردى والانحطاط وفقد مزاياها القديمة، ولم تزل تنحط قرنا عن قرن، وتتدهور بطنا عن بطن، إلى أن صارت بلاد اليونان ولاية من جملة ولايات السلطنة العثمانية. ولم تعد إلى شيء من النهوض والرقى إلا فى القرن الماضى، وأين هى مع ذلك الآن مما كانت قبل النصرانية ؟

أفيجب أن نقول إن النصرانية كانت المسؤولة عن انحطاط يونان هذا ؟

إن القائلين بأن الاسلام قد كان سبب انحطاط الأمم الدائنة به لا مفر لهم من القول بأن النصرانية قد أدت أيضاً إلى انحطاط يونان التى كانت من قبلها عنوان الرقى

ثم كانت رومية فى عصرها الدولة العظمى التى لا يذكر معها دولة، ولا يؤبه فى جانب صولتها لصولة، ولم تزل هكذا هى المسيطرة على المعمور إلى أن تنصرت لعهد قسطنطين، فمنذ ذلك العهد بدأت بالانحطاط مادة ومعنى، إلى أن انقرضت أولا من الغرب، وثانياً من الشرق، ولم تسترجع رومية بعد انقراض الدولة الرومانية شيئاً من مكانتها الأولى وبقيت على ذلك مدة ١٥ قرنا حتى استأنفت شيئاً من مجدها الغابر ،

وما هى إلى هذه الساعة بالغة ذلك الشأو الذى بلغته أيام الوثنية

أفنجعل تنصر الرومان هو العامل فى انحطاط رومة وتدحرجها عن قمة تلك العظمة الشاهقة ؟ لقد قال بهذا علماء كثيرون كما قال آخرون مثل هذه المقالة فى الاسلام ، وكلا الفريقين جائر حائد عن الصواب

فان لسقوط الرومان بعد فشو الدين المسيحى فيهم ولسقوط اليونان من قبلهم بعد أن تقبلوا دعوة بولس إلى النصرانية أسبابا وعوامل كثيرة من فساد الأخلاق ، وانحطاط الهمم ، وانتشار الخنى والخلاعة ، وشيوع الالحاد والاباحة ، ومن هرم الدول الذى يتكلم عنه ابن خلدون ، وغير ذلك من أسباب السقوط الداخلية منضمة إليها غارات البرابرة من الخارج ، فكانت ثمة أسباب قاسرة مؤدية إلى السقوط الذى كان لابد منه ، فلو فرضنا أن النصرانية لم تكن جاءت وقتئذ لم يكن الرومان ولا اليونان نجوا من عواقب تلك الحوادث ولا تخطتهم نتائج تلك الأسباب

فدعوى بعض المؤرخين الأوربيين أن تغلب المسيحية على اليونان والرومان أخنى على عظمتها ، وذهب بمدنيتها ،

ليس فيه من الصحيح إلا كون الأوضاع الجديدة تذهب بالأوضاع القديمة ، سنة الله فى خلقه وانه فى هيئةهذا التحول لابد من اضطراب الأحوال وانحلال القواعد واستحكام الفوضى ، وإلا فلا أحد يقدر أن يقول : ان الوثنية أصلح للعمران من النصرانية (١)

---

(١) علماء المسلمين يعتقدون أن النصرانية على ماطرأ عليها من الوثنية بالتثليث الوثنى القديم أصلح لأنفس البشر من الوثنية الخالصة ولكنها ليست أصلح ولا أقبل للعمران المدنى الذى تتنافس فيه أوربة وغيرها لأنها ديانة مبنية على المبالغة فى الزهد والخضوع لكل حكم دنيوى ، والعمران لايتم ولا يسمو إلا بالسيادة والملك والغنى ، ومن قواعد الانجيل أن الجمل إذا دخل فى ثقب الابرة فالغنى لا يدخل ملكوت السموات ، ونعتقد أيضا أن جميع ماجاء به المسيح عليه السلام من الدين فهو حق وكان البشر فى أشد الحاجة إلى مافيه من المبالغة فى الزهد والتواضع لمقاومة ما كان عليه اليهود وحكامهم الروم (الرومان) من الطمع والكبرياء والعتو وان هذا كان تمهيداً للاسلام الدين الوسط المعتدل الجامع بين مصالح الدنيا والآخرة فما ذكرناه من اعتقادنا يتضمن اعترافنا بحقية دين

وهذه الدعوى كانت تكون أشبه بدعوى أعداء الاسلام الذين يزعمون أن الشرق كان راتعاً فى بحابح العمران ، فجاء الاسلام وطمس المدنيات الشرقية القديمة ! لولا أنَّ الحقيقة هى كما قدمنا أن المدنيات الشرقية كانت كلها قد انقرضت أو انحطت قبل ظهور الاسلام بكثير ، وأن الاسلام وحده لا غيره هو الذى جدد مدنية الشرق الدارسة ، واستأنف صولته الذاهبة الطامسة ، وبعث تلك الحواضر العظمى الزاخرة بالبشر كبغداد والبصرة وسمرقند وبخارى ودمشق والقاهرة والقيروان وقرطبة وهلم جراً ، فان كانت قد بقيت للشرق آثار مدنيات قديمة فانّ الاسلام هو الذى وطد بوانيها ، وطرز حواشيها ، وحمل السيف بيد والقلم بيد إلى أبعد ماتصوره العقل من حدود الأقطار التى لم يسبق لشرقى أن يطأها بقدمه

فاذا كان الافرنج الصليبيون من الغرب ، وكان المغول أولئك الجراد المنتشر من الشرق ، قد تبرّوا ماعلا الاسلام

المسيح فى نفسه وبكونه من عند الله تعالى مع التعارض بينه وبين ديننا الناسخ له . ومن وظيفتى أن أبين هـذا فى حاشية مقال كتب للمنار باقتراح من أحد تلاميذ المنار على أمير البيان

(ر)

فى تلك الممالك ، ونسفوا عمران هاتيك الحواضر ، وكانت منافسات ملوك الاسلام الداخلية واتباعهم للشهوات ، وإمعانهم فى الضلالات ، ومحيدهم عن جادة القرآن القويمة ، وفقدهم ما يزرعه فى الصدور من الاخلاق العظيمة ، قد قضت فى الداخل ، على ماعجز عن تعفيته العدو من الخارج ، فليس الذنب فى هذا التقلص ذنب الاسلام ، ولا التبعة فى هذا الانقلاب عائدة على القرآن ، وإنما الذنب هو ذنب الهمج من الافرنج ، وجناية ذلك الجراد الزحاف من المغول ، وإنما هى تبعة المسلمين الذين رغبوا عن أوامر كتابهم واشتروا بآياته ثمنا قليلا ، إلا النادر منهم

وأيضا فقد تنصرت الأمم الأوربية فى القرن الثالث والرابع والخامس والسادس من ميلاد المسيح ، وبقيت أمم فى شرقى أوربة إلى القرن العاشر حتى تنصرت ولم تنهض أوربة نهضتها الحالية التى مكنتها تدريجاً من هذه السيادة العظمى بقوة العلم والفن إلا من نحو أربعمائة سنة أى من بعد أن دانت بالانجيل بألف سنة ، ومنها بعد أن دانت به بسبعمائة سنة ومنها بثمانمائة سنة الخ وهذه هى القرون المسماة فى التاريخ بالقرون الوسطى ولا نقول ان الأوربيين كانوا فى هذه القرون بأجمعهم هائمين فى

ظلمات بعضها فوق بعض ، بل نقول إن العرب كانوا أعلى كعباً منهم بكثير فى المدنية باقرار مؤرخيهم ، وبرغم أنف لويس برتران وأضرابه . ومن الكتب المخرجة حديثاً الشاهدة بذلك التاريخ العام للكاتب الفيلسوف الانكليزى « ولز » و « تاريخ مدنيات الشرق » لمؤلف افرنسى متخصص فى التواريخ الشرقية اسمه « غروسه » فالحقيقة التاريخية المجمع عليها هى واحدة فى هذا الموضوع لم يظهر ماينقضها ولن يظهر ، وهى : أن العرب فى القرون الوسطى كانوا أساتيذ الأوربيين ، وكان الواحد من هؤلاء إذا تخرج على العرب تباهى بذلك بين قومه

(سبب تأخر أوربة الماضى ونهضتها الحاضرة)

أفنجعل هذا التأخر الذى كان عليه الأوربيون فى القرون الوسطى مدة ألف سنة ناشئاً عن النصرانية التى كانت دينهم الذى يعضون عليه بالنواجذ ؟

نعم إن الأمم البروتستانتية منهم تجعل مصدر هذا التأخر الكنيسة البابوية لا النصرانية من حيث هى . وتزعم أن نهضة أوربة لم تبدأ إلا بخروج (لوثير ، وكلفين) على الكنيسة الرومانية

وأما فولتير ومن فى حزبه من أقطاب الملاحدة فلا يفرقون كثيراً بين الكاثوليك والبروتستانت ، وعندهم أن جميع هذه العقائد واحدة وأنها عائقة عن العلم والرقى ، ولهذا قال فولتير تلك الكلمة عند ماذكر لديه لوثير ، وكلفين ، قال : كلاهما لا يصلح أن يكون حذاء لمحمد[1] » يريدان أن محمداً صلى الله عليه وسلم بلغ من الاصلاح ما لم يبلغا أدناه ، مع اعتقاد الكثيرين أن مذهبهما كان فجر أنوار أوربة[2]

---

(١) ذكر فولتير هذه الجملة أمام البرنس سيندورف النمسوى الذى صار فيما بعد رئيسا لوزراء سلطنة النمسة وعندما دخل بونابرت فينّا كان هذا البرنس هو رئيس الحكومة فيها وكان نقله هذه الجملة عن فولتير فى أيام شبابه عندما اجتمع به فى سويسرة فقيدها فى مذكراته المحفوظة فى خزانة كتب فينّا وعنها نقلتها جريدة الطان ونحن نقلناها عنها (ش)

(٢) ونحن نعتقد هذا وكان شيخنا الاستاذ الامام واذكياء مريديه كسعد باشازغلول يعتقدونه ولكن بمعنى سلبى وهو أن هذا المذهب أضعف حجر الكنيسة على العقول البشرية وتقييدها بتعاليمها وفهمها للدين ورأيها فى الدنيا ، وكان سبب

والحق الذى لا نرتاب فيه أن النصرانية نفسها لم تكن هى المسؤولة عن جهالة الافرنج المسيحيين مدة ألف سنة فى القرون الوسطى بل للمسيحية الفضل فى تهذيب برابرة أوربا

وهؤلاء اليابانيون هم وثنيون . ومنهم من هم على مذهب بوذا . ومنهم من يقال لهم طاويون ، وكثيرون منهم يتبعون الحكيم الصينى كنفوشيوس . ولقد مضى عليهم نحو ألفى سنة ولم تكن لهم هذه المدنية الباهرة ولا هذه القوة والمكانة بين الأمم . ثم نهض اليابان من نحو ستين سنة وترقوا وعزوا وغلظ أمرهم ، وعلا قدرهم ، وصاروا إلى ماصاروا إليه ولم يبرحوا وثنيين

فلا كانت الوثنية إذاً سبب تأخرهم الماضى ولا هى سبب تقدمهم الحاضر ، وقد تفاوت اليابان والروسيا وتحاربتا

هذا المذهب ما سرى الى أوربة عقب الحروب الصليبية بعاشرة المسلمين من استقلال العقل فى فهم الدين وعدم سيطرة أحد عليهم فيه كما بينه شيخنا فى كتاب الاسلام والنصرانية (ر)

فتغلبت اليابان على الروسية مع أن اليابانيين فى العدد هم نصف الروس ، ولكن مما لاشك فيه أن اليابانيين أرقى من الروس ، والحال أن الروسية عريقة فى النصرانية واليابان عريقة فى الوثنية

فليترك إذاً بعض الناس جعل الأديان هى المعيار للتأخر والتقدم(١)

أفنقول من أجل هذا المثال : إن الانجيل هو الذي أخر الروسية عن درجة اليابان ، وان عبادة الآلهة ابنة الشمس هى التى جذبت بضبع اليابان حتى سبقت الروسية ؟

إن لهذه الحوادث أسباباً وعوامل متراكمة ترجع إلى أصول شتى . فاذا تراكمت هذه العوامل فى خير أو شر تغلبت على تأثير الأديان والعقائد وأصبحت فضائل أقوم الأديان عاجزة بازاء شرها ، كما أصبحت معايب أسخفها غير مؤثرة فى جانب خيرها

---

(١) هذا صحيح فى جملة الأديان إلا الاسلام فقرآنه وتاريخه يثبتان أنه هو سبب تقدم أهله حين اهتدوا به وسبب تأخرهم حين أعرضوا عنه ، كما بين هذا أمير الكتاب فى رسالته هذه فأظلم الظلم أن يجعل سبب تأخيرهم (ر)

ولسنا هنا فى صدد أسباب تقدم اليابان السريع حتى نبين أن اعتقاد عامتهم (وجود حصان مقدس يركبه الاله فلان) لم يقف حائلا دون تقدمهم المبنى على ماركب فى فطرتهم من الحماسة ، وما أوتوا من الذكاء ، وما أورثهم نظام الاقطاع القديم من التنافس فى المجد والقوة

وعندنا أمثلة كثيرة لا تكاد تحصى فى هذا الباب اجتزأنا منها بما ذكرناه . ولم نكن لنتعرض لهذا المقام لولا حملات القسوس والمبشرين وكثير من الأوربيين على الاسلام ، وزعمهم أنه هو عنوان التأخر ، وأنه رمز الجمود ، وتحدثهم بذلك فى الأندية والمجامع ، ونشرهم هذه الافتراءات فى المجلات والجرائد ، وقولهم ان الشجرة تعرف من ثمارها وان حالة العالم الاسلامى الحاضرة هى نتيجة جمود الاسلام ، وتحجر القرآن ! (كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا)

وحسبك أن المسيو (سان المقيم الافرنسى السامى) فى المغرب ينشر فى العدد الأخير من (مجلة الاحياء) الافرنسية مقالة يتكلم فيها على يقظة المغرب بعد (ليل الاسلام) ! هكذا تعبيره

فان كان تأخر احدى الممالك الاسلامية حقبة من الدهر يجب أن يقال فيه (ليل الاسلام) فكم كان ليل النصرانية طويلا عند ما بقيت أوربة المسيحية زهاء ألف سنة وهى فى حالة الهمجية أو ما يقرب من الهمجية

إن إدخال الأديان فى هذا المعترك وجعلها هى وحدها معيار الترقى والتردى ليس من النصفة فى شئ. أما الاسلام فلا جدال فى كونه هو سبب نهضة العرب وفتوحاتهم المدهشة مما أجمع على الاعتراف به المؤرخون شرقاً وغرباً ولكنه لم يكن سبب انحطاطهم فيما بعد كما يزعم المفترون الذين لاغرض لهم سوى نشر الثقافة الأوربية بين المسلمين دون ثقافة الاسلام وبسط سيادة أوربة على بلدانهم بل كان السبب فى تردى المسلمين هو أنهم اكتفوا فى آخر الأمر من الاسلام بمجرد الاسم والحال أن الاسلام اسم وفعل

حث القرآن على العلم

(باعث للمسلمين على سبق الأمم فى الرقى)

العالم الاسلامى يمكنه النهوض والرقى واللحاق بالأمم العزيزة الغالبة إذا أراد ذلك المسلمون ووطنوا أنفسهم عليه، ولا يزيدهم الاسلام إلا بصيرة فيه وعزماً، ولن يجدوا لأنفسهم حافزاً على العلم والفن خيراً من القرآن الذى فيه (هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) والذى فيه (وَزَادَهُ بَسْطَةً فِى الْعِلْمِ) والذى فيه (وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ) والذى فيه (شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ) والذى فيه (بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِى صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ) والذى فيه (يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ) والذى فيه (وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ) وفيه (يُؤْتِى الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا) وفيه (فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكاً عَظِيماً) وغير ذلك من الآيات الكريمة، وفيه ماهو خاص

بالأمة العربية (هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الْأُمِّيِّنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ)

وقد زعم بعضهم ومن جملتهم (سيكار) هذا الذى بالمغرب قد ألف كتاباً فى الطعن على الاسلام، وهو الذى يكتب فى مجلة «مراكش الكاثوليكية» أن المراد بلفظه «العلم» فى القرآن هو العلم الدينى ولم يكن المقصود به العلم مطلقاً لنستظهر به على قضية تعظيم القرآن للعلم وإيجابه للتعليم . وقد أتى سيكار من المغالطة فى هذا الباب مالا يستحق أن يرد عليه لما فيه من المكابرة فى المحسوس . وكل من تأمل فى مواقع هذه الآيات المتعلقة بالعلم وبالحكمة وغيرها مما يحث على السير فى الأرض والنظر والتفكر يعلم أن المراد هنا بالعلم هو العلم على اطلاقه متناولاً كل شيء، وأن المراد بالحكمة هى الحكمة العليا المعروفة عند الناس ، وهى غير الآيات المنزلة والكتاب كما يدل عليه العطف وهو يقتضى المغايرة . ويعزز ذلك الحديث النبوى الشهير : « اطلبوا العلم ولو فى الصين»[1] . فلو كان المراد بالعلم

(١) تتمته «فان طلب العلم فريضة على كل مسلم» رواه العقيلى وابن عدى والبيهقى وابن عبد البر عن أنس وفيه عند الأخير زيادة أخرى فى فضل العلم وله طرق يقوى بعضها بعضا (ر)

هو العلم الديني كما زعم سيكار ما كان النبي ﷺ يحث على طلبه ولو في الصين اذ أهل الصين وثنيون لا يجعلهم النبي مرجعا للعلم الديني كما لا يخفى

وفي بعض الآيات من القرائن اللفظية والمعنوية ما يقتضي أن المراد بالعلم علم الكون لأنه في سياق آيات الخلق والتكوين وهي في القرآن أضعاف الآيات في العبادات العملية كالصلاة والصيام كقوله تعالى (٣٩ : ٢٧ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللّٰهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ، وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ * وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ ، إِنَّمَا يَخْشَى اللّٰهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) أي العلماء بما ذكر في الآية من الماء والنبات والجبال وسائر المواليد المختلفة الألوان وما فيها من أسرار الخلق لا العلماء بالصلاة والصيام والقيام .

وقد كنا ظننا هذا الرجل على شيء من حب الحقيقة ، فلما أنكر المدنية الاسلامية رددنا عليه في المنار وجادلناه بالتي هي أحسن ، وعظمنا من قدر المدنية المسيحية ، ووقرنا منها ورددنا على القائلين من الأوربيين بأن النصرانية كانت وقفاً لسير المدنيـة وسبباً لسقوط اليونان والرومان إلى غير

ذلك . فكان من سيكار هذا أن نشر سلسلة مقالات تتضمن من الطعن على الاسلام مالو جئنا نرده لم نستغن عن ايراد شبه واعتراضات تتعلق بالدين المسيحى مما نأبي أن نتعرض له لأنه ليس من العدل ولا من الكياسة ولا من حسن الذوق أن نغيظ إخواننا المسيحيين من أجل رجل اسمه سيكار أو غيره من هذه الطبقة من الدعاة والمبشرين ، هذا زائدا إلى مارأيناه فى كلامه من الخلط والخبط والمغالطة التى من قبيل قوله : إن العلم المقصود فى القرآن ليس هو العلم المعروف عند الناس بمفهومه المطلق ، وانما هو العلم الدينى فقط لأن القرآن لايهمه شىء من علوم الدنيا ! فمكابر كهذا لايستحق الجواب

ثم علمنا أن المسيو سيكار هذا هو من مستخدمى فرنسة فى الرباط بادارة الأمور الاسلامية وأنه هو والمسيو لويس برينو مدير التعليم الاسلامى هناك ـ والقومندان ماركو مدير قلم المراقبة على الجرائد والمطبوعات ـ والقومندان مارتى مستشار العدلية الاسلامية ـ ورهط آخرون هم الذين لعبوا الدور الأهم فى قضية العمل لتنصير البربر . وما كان استخدام فرنسة لهم فى مهمات كلها عائدة للاسلام إلا على نية نقض كل ما يقدرون عليه من بناء الاسلام بالمغرب . وستذوق

فرنسة ولو بعد حين وبال ماعملته وتعمله من التعرض للدين الاسلامى الذى تعهدت فى معاهداتها باحترامه . إنا لانريد لفرنسا إلا خيراً ولكننا ننصح لها بالعدول عن هذه السياسة التى هى على خط مستقيم ضد المبادىء التى تعلنها عن نفسها من أن الأديان فى نظرها على حد سواء ؟ فان كانت الأديان عند الدولة الافرنسية على حد سواء فلماذا هذا الاجتهاد فى تنصير البربر وهم مسلمون ؟ ولماذا هذه المساعى الحثيثة فى تنصير العلويين سكان جبال اللاذقية وفى فصلهم عن الوحدة السورية والحال أن العلويين هم فرقة من الفرق الاسلامية كما لايخفى . وكذلك ننصح الانكليز بالعدول عن دعايتهم الدينية فى السودان والأوغاندة وننصح لهولاندة بترك دعايتها الدينية بين مسلمى اندونيسيا

(كلمة لطلاب النهضة القومية دون الدينية)

يقول بعض الناس [١] مالنا وللرجوع إلى القرآن فى ابتعاث همم المسلمين إلى التعليم فان النهضة لاينبغى أن تكون

---

(١) أى من ملاحدة المسلمين الجاهلين أو المتجاهلين لحال أوربة فى عصبيتها الدينية (ر)

دينية بل وطنية قومية كما هى نهضة أهل أوربة ، ونجيبهم ان المقصود هو النهضة سواء كانت وطنية أم دينية [1] على شرط أن تتوطن بها النفوس على الحب فى حلبة العلم ، ولكننا نخشى إن جردناها من دعوة القرآن أن تفضى بنا إلى الالحاد والاباحة وعبادة الأبدان واتباع الشهوات ، مما ضرره يفوت نفعه ، فلابد لنا من تربية علميةسائرة جنبا إلى جنب مع تربية دينية ، وهل يظن الناس عندنا فى الشرق أن نهضة من نهضات أوربة جرت دون تربية دينية ؟ وهل جرت نهضة اليابان دون تربية دينية ؟

أفلم يقل رئيس نظار ألمانية فى الرايستاغ منذ ثلاث سنوات : إن ثقافتنا مبنية على الدين المسيحى ؟ وهذا هو اعلان ألمانية التى هى المثل الأعلى فى العلم والصناعة واتقان الآلات والأدوات ، لاينازع فى ذلك أحد ، ولا أعداؤها

أفتوجد جامعة فى ألمانية أو انكلترة أوغيرهما من هذه الممالك الراقية من دون أن يكون فيهاعلم اللاهوت المسيحى؟[2]

---

(١) ولكن المسؤل عنه هو نهضة المسلمين من حيث هم مسلمون (٢) وهذا بعد التربية المنزلية الدينية المحضة والتربية المدرسية الابتدائية وجلها دينية (ر)

ثم انهم عنـدما يقولون : فى أوربة (نهضة وطنية) أو (نهضة قومية) أو جامعة وطنية أو قومية ، لا يكون مرادهم بالوطن التراب والماء والشجر والحجر ، ولا بالقوم السلالة التى تنحدر كلها من دم واحـد ، وانما الوطن والقوم عنـدهم لفظتان تدلان على وطن وأمة بمـا فيهما من جغرافية وتاريخ وثقافة وحرث وعقيدة ودين وخلق وعادة مجموعا ذلك معاً ، وهذا الذى يناضلون عنـه ويستبسلون كل هذا الاستبسال من أجله .

أسباب انحطاط المسلمين

فى العصر الأخير

من أعظم أسباب انحطاط المسلمين فى العصر الأخير فقدهم كل ثقةٍ بأنفسهم وهو من أشد الأمراض الاجتماعية وأخبث الآفات الروحية لا يتسلط هذا الداء على إنسان إلا أودى به ولا على أمة إلاساقها إلى الفناء وكيف يرجو الشفاَء عليل يعتقد بحق أو بباطل أن علته قاتلتهُ ؟ وقد أجمع الأطبَّاء فى الأمراض البدنية أن القوة المعنوية هى رأس الأدوية وان من أعظم عوامل الشفاء إرادة الشفاء فكيف يصلح المجتمع الاسلامى ومعظم أهله يعتقدون أنهم لايصلحون لشىء ولا يمكن أن يصلح على أيديهم شىء وأنهم اجتهدوا أو قعدوا فهم لا يقدرون أن يضارعوا الأوربيين فى شىء وكيف يمكنهم أن يناهضوا الأوربيين فى معترك وهم موقنون أن الطائلة الأخيرة ستكون للأوربيين لامحالة فصار مثلهم مع هؤلاء مثل أولئك الأقران الذين كان يبطش بهم سيدنا علىّ رضى الله عنه فى وقائعه فقد حدثوا أنه سمعت له فى صفين أربعمائة تكبيرة وكان من عادته كرم الله وجهه أنه يكبّر كلما صرع

قرناً، فقيل له فى ذلك فأجاب : كنت إذا حملت على الفارس ظننت أنى قاتله وظن هو أيضاً أنى قاتله فكنت أنا ونفسه عليه . وهكذا أصبح المسلمون فى الأعصر الأخيرة يعتقدون أنه مامن صراع بين المسلم والأوربى إلا سينتهى بصرع المسلم ولو طال كفاحه . وقر ذلك فى نفوسهم وتخمّر فى رؤوسهم لاسيما هذه الطبقة التى تزعم أنها الطبقة المفكرة العاقلة المولعة بالحقائق الصادقة عن الخيالات بزعمها فانها صارت تقرر هذه القاعدة المشؤومة فى كل نادٍ وتجعل التشاؤم المستمر والنعاب الدائم من دلائل العقل وسعة الادراك وتحسب اليأس من صلاح حال المسلمين من مقتضيات العلم والحكمة ومازالت تنفخ فى بوق التثبيط وتبث فى سواد الأمة دعاية العجز الى أن صار الاستخذاء ديدن الجميع الا من رحم ربك وكانت روحه من أصل فطرتها قوية عزيزة . ولم تقتصر هذه الفئة على القول بأن حالة المسلمين الحاضرة هى متردية متدنية لا تقاس بحالة الافرنج فى قليل ولا كثير بل زعمت أن التعب فى مجاراة المسلمين للافرنج فى علم أو صناعة أو كسب أو تجارة أو زراعة أو حرب أو سلم أو أى منحى من مناحى العمران هو ضرب من المحال وشغل بالعبث لا يليق

بالعاقل اتيانه ، وكأن المسلمين من طينة والافرنج من طينة أخرى فعلوّ الافرنج على المسلمين أمرٌ لابد منه وكأنه كتب فى اللوح المحفوظ وجفّ به القلم ولم يبق أمام المسلمين إلا أن يعلموا كونهم طبقة منحطة عن طبقة الافرنجة ويعملوا بمقتضى هذه العقيدة . وكثيراً ما وقعت لى مجادلات مع هؤلاء المتفاسفين بالفارغ صغار النفوس ولم يكن يدخل فى عقولهم المنطق ولا يعظهم التاريخ ولا ينفع فى اقناعهم علم الطبيعة ولا التشريح ولا يحيك بهم استنتاج ولا قياس وذلك لما غلب عليهم من آفة الذل ومرض الاستخذاء، قد أحس الاوربيون بما عند المسلمين من هذه الحالة الروحية الموافقة لمصالحهم الاستعمارية فصاروا يروجونها فيهم ويقوون عندهم هذه العقيدة فانطبق على هؤلاء الناعقين بالبين الآية الشريفة (فى قلوبهم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مرضاً) ولم يكن الافرنجة وسعاتهم ودعاتهم بلومين على ترويج هذه النظريات التاعسة بين المسلمين لأنها مما يسهّل الاستعمار ويمهد طرقه ويكفيهم المقاتلات والمنازلات ويوفر عليهم المزاحمات والمسابقات ويجعل لهم التفوّق بلا نزاع والتسلّط دون جدال ولكن العجب كل العجب من هؤلاء المسلمين الذين أمرهم الله ليتصفوا بالعزة ويتسموا بالأنفة

ويستوفوا تمام الرجولية كيف كانوا ينقادون لهذه الأضاليل
التى مآلها عبوديتهم للاجانب . لقد صدق فيهم كلام الله
تعالى (وفيكُمْ سَمّاعُونَ لَهُمْ واللهُ عليمٌ بالظالمينَ)

وأكثرما كانوا يؤكدونه للناس من عدم قابلية المسلمين
هو استحالة قيامهم بالمشروعات العمرانية والأعمال المادّية
وكل ما يتعلق به حساب ورقم أو مساحة وقياس فاذا قلت
لهم : إن كان المسلمون لايحسنون هذه العلوم كما تزعمون
فكيف استطاعوا أن يؤثروا هذه الآثار الباهرة التى يؤمّها
السيّاح من أقاصى الدنيا وكيف ملأوا مصر والشام والعراق
والمغرب وايران والهند والقسطنطينية وغيرها مبانى ومؤسسات
تبهر الابصار وتحير الافكار وكانت لهم معامل ومناسج
ودور صناعات متنوعة وغير ذلك مما يعد فى الصناعة من الطراز
الأول أجابوك : قد كان هذا قبل أن يرقى الافرنج هذا الرقى
الحديث وقبل أن يكشفوا أسرار الكون التى كشفوها وغير
ذلك مما ليس بجواب عن هذا الخطاب والموضوع هو فى واد
وهذا فى واد . فنحن نريد أن نقول ان كل من سار على
الدرب وصل وان المسلمين إذا تعلموا العلوم العصرية استطاعوا
أن يعملوا الأعمال العمرانية التى يقوم بها الافرنج وأنه ليس

هناك فرق فى القابلية البشرية ولكن على شرط أن ينفض المسلمون عن أنفسهم غبار الخمول ويلغوا هذه القاعدة التى قد كانت من أسباب شقائهم زمناً طويلا وهى أن كل عمل عمرانى فى الشرق لابد أن يستعار له شركة أوربية لتقوم به وإلا فلايستطاع عمله. ولقد أتت التجاريب بعدذلك بما يثبت فساد هذه النظرية بتمامها وتمكن المسلمون فى كثير من البلاد من انشاء شركات صناعية وتجارية وتأسيس معامل ومناسج ودور صناعة نجحت نجاحاباهراً كذب مزاعم تلك الفئة المثبطة وصيّرها موضوعا للهزؤ . ولما عزم السلطان عبد الحميد الثانى العثمانى على مد سكة حديدية من دمشق إلى الحرمين الشريفين قوبل هذا المشروع أوانئذ بمزيد الاستغراب تبعاً للعادة ومن الناس من ضحكوا به وقالوا: نحن نرى أنفسنا عاجزين عن انشاء طريق عجلات فكيف نستطيع أن ننشىء سكة حديدية طولها يزيد على ألفى كيلو متر وأنّى لنا المال والعلم اللازمان لمشروع عظيم كهذا ؟ وأغرب من تشاؤم المسلمين وشعورهم بالعجز عن القيام بهذا العمل أن المهندس الألمانى الكبير ما يسنر باشا الذى انتدبه السلطان لرئاسة مهندسى هذا الخط هو نفسه كان لايعتقد إمكان إنشاء هذا الخط وكان هذا الرجل

صديق فسألته مرة عن رأيه فيه فقال لى انه يرجو ايصاله الى معان وهى مسافة أربعمائة كيلو متر من دمشق فأمامدّهُ من معان إلى المدينة فيكاد يكون من المستحيل فسألته هل ذلك من عدم وجود المال ؟ قال : على فرض وجد المال فإن دون إنشاء الخط موانع طبيعية يتعذر التغلب عليها فان السكة يلزم لها ماء فى كل محطة والماء لايوجد إلا فى محطات معدودة وإن أنشأنا صهاريج تملأ بماء المطر لم يؤمن أن الحرارة فى الصيف تنشّف بشدتها مياه الصهاريج وهناك صعوبة أخرى وهى أن الخط سيمتد فى أمكنة كلها رمال وقد تهب الريح السافياء فتأتى برمال تغطى الخط ولا يمكن منع ذلك إلا بزرع الحلفاء والقصب والطرفاء وكل هذا يلزمه ماء حتى ينمو وأين الماء من تلك الأراضى ؟ هذا كان كلام المهندس الكبير لى من جهة الطبيعة. ثم ذكر الخطر الواقع على الخط من أعراب البَادية. فأمَّا أنا فكنت معتقداً خلاف اعتقاد الآخرين قائلاً بأن ليس ثمة صعوبات لايستطاع تذليلها وكنت من الذين ينددون بالمتشائمين والمتهكمين ونظمت فى هذا المشروع قصيدة أحث بها الأمة على التبرع لأجله وتبرعت أنا من جيبى بخمسة عشر جنيهاً وذكرت ماسيكون لهذا الخط من الفوائد العمرانية والاقتصادية

والعسكرية فضلاً عن تسهيل الحج الذى هو هدفه الأسمى وكان مطلع قصيدتى :

ألا يابنى الاسلام هل من مساعد لفعل سماوىّ المثوبة ماجد

فلما طبعتُ القصيدة ونشرتها سلقنى الكثيرون من أولئك الغربان بألسنةٍ حدادٍ وكأنى كفرت فى تنويهى بمشروع يربط الشام بالحجاز ويختصر المسافة بينهما على الحجاج من ٤٠ يوماً الى أربعة أيام وهزأوا ما شاءوا وتعطقوا بقدر ما أرادوا . ولكن كل تلك الفلسفة لم تجدهم فتيلا ونجز الخط الحديدى من دمشق الى المدينة المنورة وهى مسافة ألف وأربعمائة كيلو متر ولو لا خلع السلطان عبد الحميد لكان قد تم الى البلد الحرام ، ولكن من بعده فترت الهمة باكماله وجاءت الحرب وعواقبها فقضت باهماله . ثم ان هذا الخط جاء من أبدع الخطوط الحديدية فى العالم ، صادفت مرة فيه أحد كبراء مسلمى الهند من أعضاء مجلسها الأعلى وهو ممن تثقفوا ثقافة انكليزية محضة وتخرج من جامعة اكسفورد فقال لى : لا يوجد فى نفس انكلترة سكة حديدية تضاهى فى الاتقان هذه السكة ولو لم أشاهدها بعيونى ما صدقت بوجودها . وبالفعل لم يصدق كثير من المسلمين أخبارها فأرسلوا وفوداً

يشاهدونهـا بأعينهم ، فكان المسافر يصل من دمشق الى المدينة فى ليلتين وكانت دمشق تستفيد كل سنة من هذا الخط ما يقارب ٢٠٠ ألف جنيه وعمرت القرى التى يمر بهـا الخط وارتفعت أثمـان الأراضى ارتفاعاً مدهشاً وتضاعف عمران المدينة المنورة أضعافاً ، هذا فضلا عمـا توفر من المشاق والأخطار على الحجاج والزائرين والتجار والمسافرين . وأما الصعوبات الطبيعية التى كانوا يقدرونها فلم يصح منها شيء وأما الأعراب فلم يقع منهم على الخط أدنى اعتداء . وكان عند كل محطة من محاط الخط قلعة فيهـا جند المحافظة وكل تلك المحطات والقلاع كانت مبنية أمتن بناء . ولمـا كان لا يتاح لغير المسلمين دخول أرض الحجاز فكان إنشاء الخط أى القسم الداخل منه فى الحجاز كله على أيدى مهندسين مسلمين حتى ان مايسنر باشا الألمانى نفسه لم يتجاوز فى اشرافه بلدة تبوك .

ولما ذهبت الى المدينة المنورة زائراً النبي صلى الله عليـه وسلم وذلك سنة ١٣٣٠ كنت أسمع أن عدم مد الخط الحديدى من المدينة الى مكة نشأ عن اعتراض قبائل العرب من حرب وغيرها وانهم لا يسمحون بمرور الخط فى أراضيهم ففحصت عن هـذه القضية فوجدت أكثرها هراء وافتراء ، وسألت

شيوخ القبائل عما يقال من معارضتهم فى إنشاء السكة فقالوا : لو كنا معارضين لانشائها لعارضنا ذلك من أول دخولها فى أرض الحجاز ، والحال أننا كنا مساعدين للحكومة على هذا المشروع بكل قوانا ، فسألتهم التوقيع على عريضة للدولة يطلبون فيها تمديد هذا الخط من المدينة الى مكة ، فوقع عليها جم من أولئك المشايخ ، ولم تكن الدولة عهدت إلىَّ بهذه المهمة وإنما قمت بها خدمة للوطن وللملة . ولولا طروء الحرب العامة بعد ذلك بقليل لكان بوشر بمد الخط الحديدى من المدينة الى مكة . فلما انتهت الحرب العامة واحتلت انكلترة فلسطين وفرنسا سورية كان أول ما توجهت إليه هممِ الانكليز والفرنسيس هو تعطيل هذا الخط الحديدى الذى يربط القطر الشامى بجزيرة العرب ويقرب صلات المسلمين بعضهم ببعض . وكم احتجَّ المسلمون على تعطيل هاتين الدولتين لهذا الخط الحيوى للشام والحجاز وكم أبدوا وأعادوا فى أن هذه السكة الحديدية الحجازية كانت تركيا قد جعلتها من جملة أوقاف المسلمين فلا يحق لدولة أجنبية أن تعبث بأوقافهم فلم يكن ذلك ليقنع تينك الدولتين بالاعتدال ورفع الاعتداء ولا تزال هذه المؤامرة الفظيعة على هذا الحق المقدس من

حقوق المسلمين نافذة الى يوم الناس هذا . فاذا قام شخص مثلنا يذكرهم بهذا الاعتداء القبيح ضاقت صدورهم به ودسّ عليه الانكليز فى السر وطعن عليه الفرنسيس فى الجهر ونعتوه « بعدوّ فرنسا » وما أشبه ذلك . والحال أننا انما نريد صلاح أحوال بلادنا ولا نضمر لأحد سوءاً . والشاهد الذى نقصده هنا هو ما سبق انشاء سكة الحجاز من تشاؤم كثير من المسلمين واستهزائهم واستنكارهم وتأكيد أنه خط محال إنشاؤه ومشروع يكون من قلة العقل تعليق الأمل به . وهذا مثال من أمثلة كثيرة لا يمكن استقصاؤها من كثرتها فقلّما تدخل بلداً من بلدان الاسلام ولا يوردون لك من هذه الأمثال .

وكما ظن المسلمون أنهم لا يحسنون شيئاً من المشروعات العمرانية وانه لا بد لهم من الأوربى حتى يدخلوا على يده الاصلاح فى بلادهم وانه من دون الافرنجى لايقدرون على أية عمارة ولا مرفق ذى بال ، كذلك ذهبوا الى أنه لا حظّ لهم فى الأعمال الاقتصادية أصلا وان كل مشروع اقتصادى إسلامى صائر إلى الحبوط ان لم تكن له أركان افرنجية وقد طال نومهم على هذه العقيدة الفاسدة حتى لم يبق فى بلادهم

شيء اسمه اقتصاد إلا كانت إدارته بأيدى الافرنج أو اليهود وحتى لو دعا منهم داع الى تأليف شركة تجارية أو صناعية أو زراعية لم يدخلها صاحب رأس مال من المسلمين إلا إذا كانت ادارتها بيد افرنجى أو يهودى . وكلمة الجميع عندهم : نحن لا يخرج من أيدينا عمل ولا نصلح لشىء . وقد بقى اليهود والافرنجة يتمتعون بخيرات بلاد الاسلام قرونا وحِقَباً طوالًا دون مزاحم ولا مراغِم ويستدرّون فيها أخلاف كل صنعة ويستورون زناد كل مرفق الا ما ليس له بال حتى لو قدّر ما ضاع على المسلمين فى ظل هذا الوهم بالمليارات وعشرات المليارات ما كانت فيه مبالغة وكأن المسلمين لم يوجدوا فى الدنيا إلا عَمَلَةً أو أكَرَة يشتغلون بأيديهم ولا يشتغلون بعقولهم . وبهذا السبب خلا الميدان فى بلاد الاسلام لأصناف الأجانب يركضون فيه جياد قرائحهم وعزائمهم ويجمعون الثروات التى ليس وراءها متطلع لمزيد وذلك على ظهور المسلمين ومن أكياسهم . وقد يكثر التحدث بما يصيب الأجانب من هذه المكاسب الطائلة التى كان أهل الاسلام أولى بها لأنها من بلادهم ولا تحفزهم همة ولا تأخذهم غيرة فيجربوا الخبّ فى الحلبات الاقتصادية الى أن نبغ فى مصر

محمد طلعت باشا حرب ، فكان فى هـذا الباب أمّة وحده وأدرك بواسع عقله وثاقب فكره أن ليس فى هذا الموضوع شىء يفوق طاقة المسلمين ولا مما يتعذر وجود أدواته عندهم وأن قصورهم فيه عن مباراة الأجانب لم يكن الامن آثار ذلك التوهم القديم الذى هو أنهم لا يحسنون الجرى فى أى ميدان من ميادين الاقتصاد وقد وجدت عند هـذا الرجل فى جانب رجاحة العقل وسداد الحكم همة بعيدة قعساء ونزعة وطنية صافية من الأقذاء سالمة من الأهواء فاجتمعت فيه جميع الشروط اللازمة لمن شاء أن يبدأ فى الشرق بنهضة اقتصادية تزاحم بالمناكب وثبات الأجانب ومما يندر فى الرجال الجمع بين الحساب الدقيق والخيال الواسع وهما قد انتظما جنباً الى جنب فى دماغ طلعت باشا حرب فكانت سعة خياله مساعدةً له على الاقدام نحو المشروعات التى هى مظان الأرباح وكانت دقة حسابه مساعدة له على نجاحها وضمان أرباحها . وبالاختصار اقتحم طلعت حرب معركة هى الأولى من نوعها فى المجتمع الشرقى . وعند ما باشر جمع رأس المال الذى كان حدده لانشاء بنك مصر وهو ٨٠ ألف جنيه عانى فى ذلك أهوالا ونحت جبالا وذلك لما ران على عقول المسلمين من

أنهم لا يقدرون على الاستقلال بعمل اقتصادى وأن كل عملٍ منهم فى هذه السبيل حابطٌ من نفسه هابطٌ على أم رأسه فلما أخذ طلعت باشا حرب يتقاضى أغنياء مصر المشاطرة فى هذا المشروع لبّوا نداءه حياءً منه لا اعتقاداً بأنه سيأتى بثمرة وبقيت ثقتهم بأجمعها فى بنوك الأجانب، ومازال معولهم عليها إلى أن شاهدوا بأعينهم النجاح الذى كاد يكون معجزة فى نظرهم وارتفع رأس مال بنك مصر من ٨٠ ألف جنيه إلى مليون جنيه واحتوت خزائنه من الودائع على عدة ملايين من الجنيهات واشتمل على أملاك وسلفات وشركات متعددة متنوعة تقدر بملايين أخرى من الجنيهات بحيث زادت الأموال التى تحت تصرف البنك على عشرين مليون جنيه وكل هذا فى ثمانى عشرة سنة أنشأ فيها طلعت باشا حرب ومدحت باشا يكن ورفاقهما على حساب بنك مصر شركة مصر للغزل والنسج التى معملها فى المحلة هو من أكمل وأعظم معامل الغزل والنسج فى العالم يعمل فيه ١٨ ألف عامل يندر فيهم غير المصرى ويسد من المنسوجات القطنية ثلث حاجة القطر المصرى بأجمعه فيكون قد وفر على المملكة المصرية ثلاثة ملايين جنيه سنوياً كانت من قبل تخرج من جيوب

المصريين لتدخل فى جيوب الأوربيين . وهناك من توابع بنك مصر شركة مصر لنسج الحرير وشركة مصر للتمثيل والسينما وكل هذه نالت معروضاتها الجوائز الكبرى فى المعرض الدولى الباريزى سنة ١٩٣٧ ثم شركة مصر لمصايد الأسماك وشركة مطبعة مصر وشركة مصر للطيران وشركة مصر للسياحة وناهيك بشركة مصر للملاحة البحرية وما أنشأته من المنشآت الجوارى كالأعلام مثل زمزم والكوثر والنيل وغيرها مما كاد يكون كالأحلام فصار الحجاج يبلغون الحجاز على بواخر يرون بها أنفسهم فى مثل قصور الملوك فراهةً ورفاهةً وراحةً ونعيماً ومقاماً كريماً،وصار سياح مصر الكثيرون إلى أوربة فى فصل الصيف يركبون تحت العلم المصرى الشريف بواخر لوقرنت ببواخر الأمم الأوربية حلّت بينها فى الصف الأول هذا بعد أن قضينا كل هذا الدهر نسير ونسرى فى البواخر الأجنبية ونؤدى إليها أموالنا بلا سبب سوى قصور هممنا عن انشاء بواخر خاصة بأوطاننا بها ركوبنا وعليها نقل بضائعنا وليس هنا محل تفصيل مشروعات طلعت باشا حرب باعث النهضة الاقتصادية فى الشرق لنخوض فى هذا العباب ولا مقصدنا

تمجيده والاشادة بمآثره ولو بالحقيقة ، وانما كان ايرادنا هذه القصة على سبيل المثال لما كان عليه المسلمون من الجبن فى المواطن الاقتصادية إلى أن هبّ هذا الرجل مدير بنك مصر فأيقظهم من سباتهم وأعلمهم أنهم رجال كما الأوربيون رجال وأنهم اذا شحذوا غرار عزائمهم وأعملوا أسنّة قرائحهم قدروا على ما يقدر عليه الأجانب من الأعمال الاقتصادية الكبيرة. وها نحن أولاء الآن نرى العاملين فى بنك مصر وفى الشركات المضافة إليه ثلاثين ألف مستخدم وعامل كلهم مصريون الا النادر الأندر ، وهكذا بدأ المسلمون يقتحمون معارك الحياة الاقتصادية فى كل فن من فنونها وتولدت عندهم فى أنفسهم ثقة كانت محجوبة عنهم من قبل بحيث ان أحمد حلمى باشا والسيد عبد الحميد شومان من فلسطين أسسا فى القدس بنكا كل رأس ماله خمسة عشر ألف جنيه ، وتوفقا بحسن ادارتهما الى أن صيرا هذا البنك العربى الوحيد فى القطر الشامى من البنوك المعدودة ذوى الفروع الكثيرة وصار يشتمل على خمسمائة ألف جنيه . وكذلك أسسا بنكا زراعياً شاطر فى تأسيسه أكثر من خمسة آلاف مساهم من عرب فلسطين وبلغ رأس ماله نيفاً ومائة ألف جنيه ، فسدّت بهذين البنكين

الأمة العربية فى فلسطين حاجتها واستغنى ذوو الحمية منها عن الالتجاء الى بنوك الأجانب ، وفهم الناس أن هؤلاء ليسوا فوق الشرقيين وأنهم لا يعجزون

إنما جئنا بهذين المسألتين للاستدلال على الأضرار الفظيعة التى كان يحدثها بالمسلمين عدم ثقتهم بأنفسهم . ولعلهم بدأوا يتعافون الآن من هذا المرض الاجتماعى المهلك والله غالب على أمره .

هكذا إذا توجهت الهمم

الاصلاحات المعنوية والمادية فى البلاد المقدسة

توالت على بلاد الاسلام المقدسة قرون وأحقاب كانت فيها أشد البلاد افتقاراً إلى الاصلاح وأقربها إلى الفوضى وأقلها أَمَنَة سُبُل وراحة سكان وأكثرها عيثاً وفساداً . وكانت هذه الحالة فظيعة جداً مخجلة لكل مسلم مُرمضة لكل مؤمن حجة ناصعة للأجانب على المسلمين الذين لا يقدرون أن ينكروا مافى الحجاز من اختلال السبل واضطراب الحبل مع كونه هو مهد الاسلام ومركز الحجيج العام فى كل عام إلى بيت الله الحرام والمشاعر العظام ومهوى قلوب يتأجج بها الغرام لزيارة مرقد الرسول عليه الصلاة والسلام

كان الأجانب يستظهرون بهذه الحالة على دعوى أن الاسلام لا يلتئم مع العمران وأنه هو والفوضى توأمان . وأنه لو كان ديناً عمرانياً لما كانت تكون هذه الحالة السيئة فى مركزه ولما عجز عن إقامة العدل والأمن فى مأرزه

وحقيقة الحال هى أن تلك الفوضى لم تنشأ إلا عن إهمال العمل بقواعد الشرع الاسلامى وعن إرخاء العنان لبعض

الأمراء الذين كانوا يلون أمر الحجاز مدلّين على الناس بما لهم من النسب النبوىّ الشريف الذى كان يحول بين سلاطين الاسلام وبين تشديد الوطأة عليهم أو إرهاف الحد فيهم، وقد كان هذا من خطل الرأى ومن التقصير فى جانب الشرع فان الشريعة الاسلامية لاتعرف نسباً ولا حسباً (فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ) وان الله تعالى قد جعل التقوى فوق كل المناقب والمحامد وقرر أن من قصر به عمله لم ينهض به نسبه ومن المروى عن النبي صلى الله عليه وسلم : « ألا إن بعض آل بيتى يرون أنفسهم أولى الناس بى وليس الأمر كذلك . إنما أوليائى المتقون من كانوا وحيث كانوا . ألا انى لاأجيز لأهل بيتى أن يفسدوا ماأصلحت »

هذا حديث نقله لنا خاتمة المحدثين المرحوم السيد بدر الدين الحسنى المغربى الدمشقى وكيف كانت درجة ثبوته فهو مطابق لروح الشرع تتفجر معانيه من كل ناحية من الكتاب. ولهذا كان سلاطين الاسلام من وقت إلى آخر ينذرون من أمراء الحرمين من كانوا يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق. ولقد ذهب مثلاً ذلك الكتاب الذى كتبه أحد سلاطين مصر من المماليك إلى أحد أمراء مكة المكرمة وهو الذى

يقول له فيه : « اعلم أن الحسنة فى نفسها حسنة وهى من بيت النبوة أحسن، والسيئة فى نفسها سيئة وهى من بيت النبوة أسوأ، وقد بلغنا أنك بدلت حرم الأمن بالخيفة، وأتيت مايحمر له الوجه وتسودّ الصحيفة، فان وقفت عند حدك وإلا أغمدنا فيك سيف جدّك » ولا ينبغى أن يفهم من هنا أن هؤلاء الأمراء لم يكن فيهم إلا من استحق هذا الوصف . كلا . فقد وجد فيهم الأمراء العادلون إلا أنه قد بقيت مع الأسف أحوال الحجاز غير مستوية وأعراب البادية يسطون على الحجاج وليس لداء معرتهم علاج وكانت كل من الدولة العثمانية والدولة المصرية ترسل توابير من الجند النظامى مصحوبة بالمدافع وسائر آلات القتال لأجل خفارة قوافل الحج وتؤدى إلى زعماء القبائل الرواتب الوافرة وكل هذا لم يكن يمنع الأعراب ومن لايخاف الله من الدعار من تخطف الحجاج فى كل فرصة تلوح لهم . وكثيراً ما كانت قافلة الحج تضطر إلى الرجوع وقد فاتها الحج أو الزيارة بعد أن قصدوا ذلك من مكان سحيق وتكلفوا بذل الأموال وتجشموا مشاق الأسفار فى البر والبحر فكانوا يذوبون من الشوق على مافاتهم ويتحرقون من الوجد ويبكون بصيب الدمع والناس بأجمعهم

يحوقلون ويقولون : (ليس لها من دون الله كاشفة) ذاهبين إلى أن سطو الأعراب هؤلاء داء عضال لاتنفع فيه حيلة ولا وسيلة وقد عمت بهم البلوى وإلى الله المشتكى. وهكذا توالت القرون والحقب والناس على هذا الاعتقاد لا يتزحزحون عنه إلى أن آل أمر الحجاز الى الملك عبد العزيز بن سعود منذ بضع عشرة سنة فلم تمض سنة واحدة حتى انقلب الحجاز من مسبعة تزأر فيها الضوارى فى كل يوم بل فى كل ساعة الى مهدأمان وقرارة اطمئنان ، ينام فيها الأنام بملء الأجفان ولا يخشون سطوة عاد ولا غارة حاضر ولا باد ، وكأن أولئك الأعراب الذين روّعوا الحجيج مدةقرون وأحقاب لم يكونوا فى الدنيا وكأن هاتيك الذئاب الطلس تحولت إلى حملان فلا نهب ولا سلب ولا قتل ولا ضرب ، ولو شاءت الفتاة البكر الآن أن تذهب من مكة الى المدينة أو من المدينة الى مكة أو إلى أية جهةمن المملكة السعودية وهى حاملةالذهب والألماس والياقوت والزمرد ما تجرأ أحد أن يسألها عما معها . وما من يوم إلا وتُحمَل فيه إلى دوائر الشرطة لقَط متعددة ويؤتى بضوالّ فقدها أصحابها فى الطرق وأكثر من يأتى بها الأعراب أنفسهم خدمة للأمن العام وإبعاداً للشبهة عنهم وعن ذويهم

فسبحان محوّل الأحوال ومقلّب القلوب ووالله لايوجد فى هذا العصر أمن يفوق أمن الحجاز لافى شرق ولا فى غرب ولا فى أوربا ولا فى أمريكا، وقد تمنَّى المستر كراين الأميركىّ صديق العرب الشهير فى إحدى خطبه أن يكون فى وطنه أمريكا الأمن الذى رآه فى الحجاز واليمن . وكل من سكن أوربة وعرف الحجاز فى هذه الأيام يحكم بأن الأَمَنة على الأرواح والأعراض والأموال فى البقاع المقدسة هى أكمل وأشمل وأوثق أوتاداً وأشد أطناباً منها فى الممالك الأوربية والأميريكية، فأين أولئك الذين كانوا يقولون ان الأعراب لايقدر على ضبطها إنسان وان سكان الفيافى هم غير سكان سائر البلدان فهاهوذا ابن سعود قد ضبطها بأجمعها فى مملكته الواسعة ومحا أثر الغارات والثارات بين القبائل وأصبح كل إنسان يقدر أن يجوب الصحارى وهو أعزل ويدخل أرض كل قبيلة دون أن يعترضه معترض أو يسأله سائلٌ إلى أين هو غادٍ أو رائح ولو قيل لبشرٍ ان بلاداً كان ذلك شأنها من الفزع والهول وسفك الدماء وقطع الطرق قد مرد أهلها على هذا البغى وهذا العداون من سالف الأزمان وانه يليها ابن سعود فلا تمضى على ولايته لها سنة واحدة حتى يطهرها

تطهيراً ويملأها أمناً وطمأنينةً لظن السامع أنه يسمع أحلاماً أو خرافات أو اتّهم القائل فى صحة عقله . ولـكن هذا قد صار حقيقةً كلية وقضية واقعية فى وقت قصير ، وما أوجده إلا همة عالية وعزمة صادقة وإيمان بالله وثقة بالنفس وعلم بأن الله تعالى مؤيِّدٌ من أيَّده ناصرٌ من نصره يحث على العمل ويكافىء العامل ويكره اليأس ويقول لعباده : (وَمَنْ يَقْنَطْ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ)

وقد سرت بشرى الأمان الذى شمل البلاد المقدسة الحجازية فعمَّت أقطار الاسلام وأثلجت صدور أبنائه وارتفعت عن الحجاز تلك المعرَّة التى طالما وجم لها المسلمون وذلك بقوة ارادة الملك عبد العزيز بن سعود والتزامه حدود الشرع ولـكن ليس هذا كل شىء وقد بقيت حاجات فى الصدور فلم يزل يعوز الحجاز وسائل كثيرة للراحة والهناء من قبيل الاصلاحات المادية العمرانية التى يتوق اليها الحجاج ولا يجدونها وهى اصلاحات عصرية لاطاقة للحجاز بها مع قلة الوارد الى بيت المال وازدياد الخرج على الدخل وأيضاً مع استئثار أكثر بلاد المسلمين بأوقاف الحرمين الشريفين وعدم استعمالها فيما وقفت عليه. وقد كان يتحتم على العالم الاسلامى أن يشاطر من

زمن طويل فى إزاحة هذه العلل المادية التى يعتذر الحجاز بحق عن أن يقوم بها وحده لا سيما أن الحرمين الشريفين ليسا للعرب وحدهم بل لجميع المسلمين . فلم تزل هذه المسئلة موضوع الأمانى ومتجه الآمال والناس ينتظرون فيها الابتداء بعمل من الأعمال الى أن عقدت مصر عزيمتها على هذا الأمر الذي مصر جد مليئة بأن تضطلع به وبأن تكون فيه السابقة والقدوة لغيرها . ولم يطلق على مصر لقب « كنانة الله فى أرضه » عبثاً بل هى من قديم الدهر موئل الحجاز وأنبار المُسْنِتين من أهله ، وحسبك ما قامت به مصر عام الرمادة من ميرة الحجاز بطلب سيدنا عمر الى سيدنا عمرو رضى الله عنهما ومن بعد ذلك لم تشتد بأهل الحرمين لأواء ولا عضّتهم مسغبة بنابها الا أسرعت إليهم مصر بالاغاثة وتفريج الكربة، لم تتخلف مصر عن هذا الواجب فى وقت من الأوقات . وفى هذه الأيام عندما اشتدّ الشعور بوجوب اصلاح الحجاز من الناحية العمرانية بعد أن أزيحت علته من جهة تأمين السوابل كانت مصر هى الناهضة لمد يد المساعدة إليه فى هذا الشأن وكأنما كتب فى اللوح المحفوظ أن يكون محمد طلعت باشا حرب هو الطالع حرباً على الخلل والفوضى والاهمال فى عمران

الشرق فوجه شطراً من همته العلياء شطر البيت الحرام الذى قد أمرنا الله بأننا حيث ما كنا نولى وجوهنا شطره لئلا يكون للناس علينا حجة ، فكان طلعت باشا حرب فى هـذه الحلبة أيضاً هو المجلّى وكان قد بدأ من بضع سنين بتأسيس شركة الملاحة البحرية وأنشأ البواخر الجوارى كالأعلام البالغة الحد الأقصى من أسباب الراحة والانتظام مثل زمزم والكوثر وغيرهما مما قد سبق الكلام عليه وحصل بذلك من الفرج لحجاج بيت الله الحرام ما تحدثت به الركبان وشاع ذكره فى البلدان ولكن لم يكن هذا كل ما تسمو إليه همة هذا الرجل من إصلاح عمرانى وتنظيم مادى فى الحجاز فقصد الى الأرض المقدسة ونظر فى مختلف العلل التى تجب معالجتها وعرض نتيجة مشاهداته على الحكومة المصرية التى أسرعت فى إجابته الى تقرير اللازم من هـذه الاصلاحات الحيوية بالاتفاق مع الحكومة السعودية التى بذلت كل ما فى وسعها لأجل تسهيل الاتفاق وتيسير الارتفاق فكان ما ستنفقه الحكومة المصرية والحكومة السعودية هـذه النوبة على اصلاحات الحجاز من انشاء طرق وانارة كهربائية وتوزيع مياه وتطهيرها وغير ذلك نحواً من مائتين وأربعين ألف جنيه

وهكذا تكون الدولة المصرية قد نهجت السبيل لجميع الحكومات الاسلامية فى العالم أن تشاطر فى القيام على قدر امكانها بما يستلزمه الحجاز من الاصلاحات العصرية التى لا مندوحة عنها فى قطر يؤمُّه المسلمون من المشارق والمغارب سالكين اليه البر والبحر والجو وهو مرشح حتما بواسطة طرق الانتقال الحديثة لزيادة العمران وتكاثف السكان وليكون أنموذجاً للجمال الصورى والمعنوى ومثالا لطيب النجعة فى الشتاء والصيف فان الذى يشتمل عليه الحجاز من المصايف البديعة كالطائف والهدا ووادى محرم ووادى ليّه وجبال الشفا العالية ثلاثة آلاف متر عن سطح البحر يندر وجود أشباهه فى المعمور كما فصلنا ذلك فى رحلتنا الحجازية الموسومة « بالارتسامات اللطاف » لا يعوز هذه الأمكنة الممتازة بطيب هوائها وجودة مناخها وجمال إقليمها سوى الطرق المعبَّدة للسيارات حتى تقرب المسافات

ولقد نشرت شركة بنك مصر عن الاصلاحات اللازمة للحجاز تقارير وافية قيّمة من أقلام المهندسين البارعين الذين أنفذتهم شركة البنك الى الأراضى المقدسة مثل محمد الجمال بك نائب المدير العام لمعامل الغزل والنسج المصرية الذى تكلم

على حالة الحجاز العمومية وقابلية أرضها وما يلزم لهذه البلاد من الأسباب الفنّية والمدارس الصناعية وألمّ بمشروع المياه الذى يلزم له بناء خزان فى مكان مرتفع تعلوعنه عين زبيدة بحيث يسد كل عوز فى مكة من جهة المياه وبمشروع اضاءة مكة بالكهرباء وبمشروع إنشاء طريق صالحة للسيارات من جدة الى البلد الحرام أو سكة حديدية توصل بينهما ومشروعات أخرى تضمنها هذا التقرير الواضح المفيد الذى ليس فيه محل نظر سوى تخمينه عدد مسلمى المعمور بمائتين وخمسين مليوناً فهذا خطأ فاحش ناشىء عن متابعة إحصاءات قديمة أوربية غير نزيهة، أوثمة خطأ مطبعى تصحيحه ٣٥٠ مليونا (ثلاثمائة وخمسون مليونا) وهذا أيضا دون الواقع كما أوضحنا ذلك بالاحصاءات الرسمية والبراهين الساطعة فى مجلتنا «لاناسيون آراب» رداً على الزاعمين أن عدد المسلمين ٢٦٠ مليونا مع أن مسلمى آسية وحدها ينيفون على ٢٦٠ مليونا وقد بقى غير داخل فى هذا الاحصاء مسلمو افريقية الذين يناهزون مائة مليون ومسلمو أوربة الذين هم خمسة إلى ستة ملايين . ولقد اهتممنا بهذا الموضوع عمداً لما نحسّه من تحرّج صدور الأوربيين بكثرة عدد المسلمين واجتهاد الدول الاستعمارية

بخاصة أن ينقصوا من عـددهم ويُخسروا من وزنهم . فمحصنا هذا البحث عدة مرات لما نشعر من نيتهم هذه. ثم نعود إلى قضيته اصلاحات الحجاز فنقول: إن من جملة التقارير الوافية فى هذا الموضوع تقريراً محرراً بقلم المهندس المحقق السيد حسن البهتيمى الذى يتـكلم على تحويل مجرى السيل عن مكة وعلى تحسين طريق المسعى بين الصفا والمروة وتحسين طريقة ورود المياه بعرفات من عين زبيدة وانارة البلد الأمين بالكهرباء وتقريراً آخر فى هذه المسائل نفسها من قلم السـيد مصطفى ماهر رئيس مهندسى مياه الجيزة والجزيرة بمصر ذهب فيـه إلى أنه بعد أن يتم اصلاح توزيع عين زبيدة وعين حنين التى يتفرع منها المجرى المسمى بعين الزعفران يجب أن يباشر الحفر فى سائر الآبار والأودية التى هي مظان مياه غزيرة تفيض عن حاجة مكة من جهة شرب الشفة وتـكفى للزراعة وللبساتين قال : ومشروع المياه سيكون مفتاحا للبحث عن هذه الـكنوز الأرضية. وتـكلم المهندس المشار إليه على بئر زمزم وقال إن فى مائها أملاحاً نافعة كأملاح المياه التى يستشفى بها فى أوربة فهى من هذه الوجهة صالحة لتوضع فى زجاجات معقمة مقفلة وتحمل إلى الخارج وتباع فيكون منها ربح جزيل . ثم أشار

بالوسائل اللازمة لصيانتها من الجراثيم الضارة وأن يتولى عالم بكتريولوجى دوام تحليلها ليكون تعقيمها تاماً

وتكلم على عملية مياه عين زبيدة وبناء الخزانات اللازمة بتفاصيل ليس هنا مكانها. وأصحب التقرير بالرسوم التي توضح كل شيء وأشار إلى انارة مكة بالقوة الكهربائية وما فيها من أرباح وفوائد وذلك كما قرره المهندسون الآخرون ولكلٍّ وجهة هو موليها

وفى تقرير المهندس الكبير السيد مصطفى ماهر كلام خاص بالمدينة المنورة التى هى جنة من جنان الأرض وفيه وصف مياهها العذبة الغزيرة وحدائقها الغناء وقد ختم تقريره الشائق بقوله :

وإنى أسأل الله أن يوفق عباده المؤمنين إلى مد يد المعونة إلى الأراضى المقدسة قبلة المسلمين كل فيما يقدر عليه للتيسير على أهلها والاحتفاظ لهذه البقاع الطاهرة بما يليق بها من الجلال والوقار . اه

وتنتهى مجموعة هذه المباحث التى أعظم اليد فى اجرائها لطلعت باشا حرب بالتقارير الصحية الجلية الوافية من قلم العلماء المتخصصين السادة محمد حسن العبد ومصطفى ماهر وحسن

حسنى راشد الكيمأى بوزارة الصحة المصرية وحسن البهتيمى وكيل القلم الفنى ببنك مصر. وفى هـذه التقارير التحليلات المفصلة الدقيقة لمياه بئر زمزم ومياه عين زبيدة ومياه عين الزعفران فى مكة وعين الزرقاء فى المدينة المنورة مع النواحى الفنية اللازمة للاستفادة منها. ولما كانت هذه المجموعة قد نشرت وتوزعت اكتفينا منها بلمحة دالة فى هذه الرسالة سائلين الله أن يوفق كلاً من الدولتين العزيزتين المصرية والسعودية إلى اتمام هذه الاصلاحات الجليلة بحذافيرها فان الاصلاح واجب فى كل مكان فكيف فى البقاع المقدسة

خلاصة الجواب

(ان المسلمين ينهضون بمثل مانهض به غيرهم)

ان الواجب على المسلمين ـ لينهضوا ويتقدموا ويعرجوا فى مصاعد المجد ، ويترقوا كما ترقى غيرهم من الأمم ـ هو الجهاد بالمال والنفس الذى أمر به الله فى قرآنه مراراً عديدة ، وهو مايسمونه اليوم (بالتضحية)

فلن يتم للمسلمين ولا لأمة من الأمم نجاح ولا رقى إلا بالتضحية ، وربما كان الشيخ محمد بسيونى عمران أو غيره من السائلين عن رأينا فى هذا الموضوع قد ظن اني سأجيبه أن مفتاح الرقى هو قراءة نظريات (اينشتين) فى النسبية مثلا أو درس أشعة (رونتجين) أوميكروبات (باستور) أوالتعويل فى اللاسلكى على التموجات الصغيرة أكثر من الكبيرة ، أو درس اختراعات (أديسون) وان سبب حادثة المنطاد الانكليزى الذى سقط أخيراً واحترق هو كونه لم ينفخ بالهليوم وانما نفخ بالهيدروجين ، والحال أن الهيدروجين ـ وإن كان أخف فى الوزن ـ قابل للاشتعال ، وانه لا خوف

من اشتمال الهليوم وإن كان أثقل شيئاً من الهيدروجين ـ وما أشبه ذلك

والحقيقة ان هذه الأمور إنما هى فروع لا أصول ، وانها نتائج لا مقدمات ، وان (التضحية) أو الجهاد بالمال والنفس هو العلم الأعلى الذى يهتف بالعلوم كلها ، فاذا تعلمت الأمة هذا العلم وعملت به دانت لها سائر العلوم والمعارف ودنت منها جميع القطوف والمجانى

وليس بضرورى أن يكون صاحب الحاجة عالما بعملها حتى يكون عالما بالاحتياج إليها . قال لى مرة حكيم الشرق السيد جمال الدين الأفغانى :

« ان الوالد الشفيق يكون من أجهل الجهلاء ، فاذا مرض ابنه اختار له أحذق الاطباء ، وعلم أن هناك شيئاً نافعاً هو العلم لا يعلم هو شيئاً منه ، ولكنه يعلم بسائق حرصه على حياة ابنه أنه ضرورى »

ولم يكن محمد على عالما وربما كان أميا ، ولكنه بعث مصر من العدم إلى الوجود فى زمن قصير ، وصيرها فى زمانه من الدول العظام بسائق هذا العلم الأعلى الذى هو العقل

السليم والارادة ، وهو الذى يبعث صاحبه إلى التفتيش عن العلوم وحمل الأمة عليها

فالمسلمون يمكنهم إذا أرادوا بعث العزائم وعملوا بما حرضهم عليه كتابهم أن يبلغوا مبالغ الأوربيين والأمريكيين واليابانيين من العلم والارتقاء ، وأن يبقوا على إسلامهم كما بقى أولئك على أديانهم ، بل هم أولى بذلك وأحرى ، فان أولئك رجال ونحن رجال ، وانما الذى يعوزنا الاعمال ، وانما الذى يضرنا هو التشاؤم والاستخذاء وانقطاع الآمال. فلننفض غبار اليأس ولنقدم إلى الامام ، ولنعلم أننا بالغو كل أمنية بالعمل والدأب والاقدام ، وتحقيق شروط الايمان التى فى القرآن (والذِينَ جاهدُوا فِينَا لنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلنا وإنَّ الله لمعَ المحسنينَ)

لوزان ١١ نوفمبر سنة ١٩٣٠

شكيب أرسلان

« تم الجواب »

فهرس

لماذا تأخر المسلمون، ولماذا تقدم غيرهم ؟

صفحة

صفحة

﴿ تم الفهرس ﴾

السيد محمد رشيد رضا

أو إخاء أربعين سنة

بقلم الامير شكيب أرسلان

المرحوم السيد محمد رشيد رضا علم من أعلام المسلمين وقائد من قواد جيوش النهضة العربية ، اشتهر فضله فى جميع العالم الاسلامى بما كان له من المواقف الجليلة فى الذود عن الحوزة الاسلامية ، والنضال عن التعاليم المحمدية مدة خمس وأربعين سنة . ولقد عرف له هذا الفضل كبراء المسلمين والعلماء من جميع الطبقات مما حمل صديقه أمير البيان الأمير شكيب أرسلان أن يكتب تاريخ حياة هذا البطل الذى فقده المسلمون أشد ما كانوا احتياجا إلى مثله ، فكان تاريخا حافلا بأعماله المجيدة ، وأقواله السديدة. وزاد حسنا بما لأمير البيان من صلة الاخوة المعنوية بالسيد رشيد بما كان من أخذ الاثنين عن أستاذ واحد هو الشيخ محمد عبده ؛ فكانت بينهما مناجاة الأخ لأخيه . لهذا اشتمل هذا الكتاب على نحو ٢٠٠ مكتوب من مراسلات السيد رشيد لأخيه الأمير شكيب منذ وضعت الحرب العامة أوزارها . وهى مراسلات تجلت فيها روح السيد رشيد بجميع صفاء فطرتها ونقاء سريرتها ، لأنه لم يكن يتوقع أنها ستنشر فى يوم من الأيام ، فأرسل فيها نفسه على سجيتها فجاءت من مثل البلاغة العليا ومن محاسن الدين والدنيا ومنها يقدر القارىء أن يأخذ خلاصة حوادث العالم الاسلامى فى السنين العشرين الأخيرة ومجمل المسائل التى توجه العرب إلى حلها فى هذه الحقبة من الدهر . هذا عدا ما تضمنته من الفوائد الشرعية واللغوية ، والأخذ والرد بين المترجم والمترجم فيما كانا يتبادلان فيه من الأفكار . فالكتاب يقع فى نيف وثمانمائة صفحة بالورق الجيد والطبع الأنيق وثمنه ٢٠ غرشا صاغا .

ويطلب من : مكتبة عيسى البابي الحلبي وشركاه

صندوق بريد الغورية رقم ٣٦

مؤلفات صاحب العطوفة

الأمير شكيب أرسلان

تطلب جميعها من : مكتبة عيسى البابى الحلبى وشركاه بمصر

صندوق بريد الغورية رقم ٢٦

الحلل السندسية

فى الأخبار والآثار الأندلسية

معلمة قيمة وسجل جامع لما كان فى ذلك الفردوس المفقود من رجال العلم وآثار الحضارة الاسلامية ، ولقد أجاد المؤلف فيما كتبه عن الأندلس ، ووفق إلى حد بعيد فى أحياء تلك الذكرى المحبوبة ، وجمع من آثار الأندلس أكبر ما يمكن جمعه لرجل انقطع للتاريخ ، فأى شىء أراده الباحث من تراجم الرجال أو أسماء البلدان ، أو آثار العمران أو غير هذا مما يتصل بالعرب وجده فى هذه المعلمة .

وقد صدر الجزء الأول والثانى . وأما الثالث فقد قارب الانتهاء وسيبدأ بعده فى الجزء الرابع وهكذا الى أن ينتهى الكتاب . وثمن كل جزء ١٥ قرشا

شوقى

أو صداقة أربعين سنة

تحليل للصداقة بين أمير البيان وأمير الشعر ذكر فيه المؤلف صداقته لشوقى و
والمزايا التى كان يمتاز بها وأبدى اعجابه بقصائده و بشعره وقارن بينه وبين غ
وثمن النسخة منه عشرة قروش صاغا

ديوان الأمير شكيب أرسلان

أراد عطوفة المؤلف أن يتحف أبناء العربية بشىء من شعره ليروا فيه ذ
من الأدب الذى اعتادوا قراءته فى مقالاته القيمة : وثمن النسخة منه عشرة ق